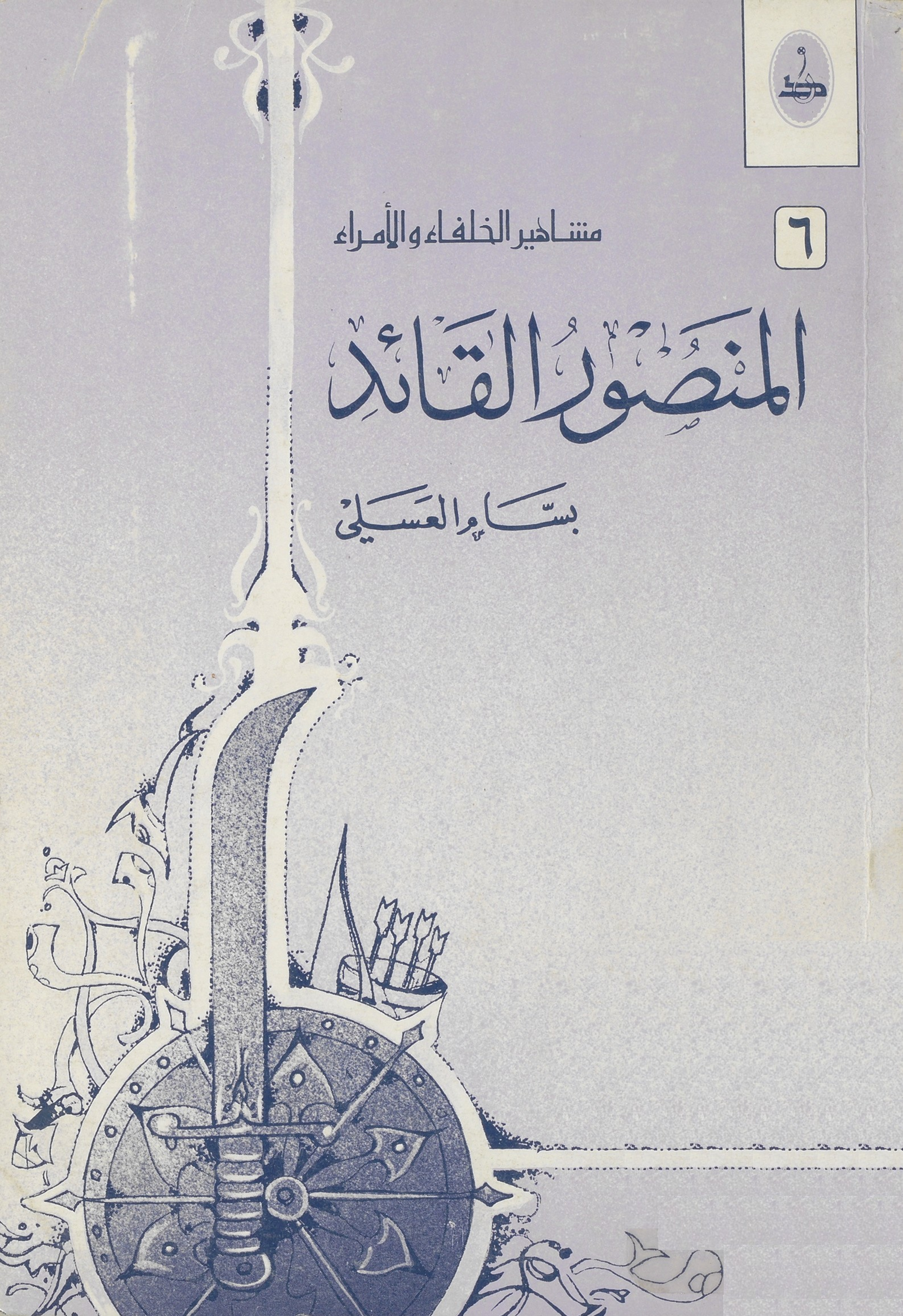

٦
مشاهير الخلفاء والأمراء
المنصور القائد
بسام العسلي

مشاهير الخلفاء والأمراء

المنصور القائد

بسام العسلي

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

© دار النفائس



ص . ب ٦٣٤٧/ ١١ - بيروت - هاتف ٨١٠١٩٤ - برقياً دانفايسكو
شارع فردان - بناية الصباح وصفي الدين - الطابق الثالث

الطبعة الأولى : ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

المقدمة

غرق العالم الإسلامي بالدماء ، دماء بني أمية ، ومن والاهم ، ومن شايعهم ، ومن انتصرَ لهم ؛ فقد انطلقت الرايات السوداء من أقاصي خراسان ، وسارت تحتها جحافل الناس وقد ضمَّت أمماً شتَّىٰ ، جمعها الحقد ضد بني أمية ، وجمعَ بعضها الحقد على الإسلام ذاته . وانطوت الرايات البيضاء ، رايات بني أمية ، لتظهر من جديد في أقاصي العالم القديم ، في أندلس المسلمين . وكان لزاماً أن تظهر التناقضات فور استقرار الأمر لبني العباس ؛ ذلك أن هؤلاء الذين ركبوا موج الدعوة لآل البيت ، لم يكن هواهم مع آل البيت إلَّا سبيلاً للتحكم بدولة المسلمين . وقد مثَّلهم أبو مسلم الخراساني أصدق تمثيل ، وكذلك أشياعه (الراوندية) الذين لم يفهموا الإسلام إلَّا على أنه ضرب من المجوسية ، ولم يركبوا موجة الدعوة لآل البيت إلَّا على أنها تعيد مجد الدولة الفارسية المندثر . ثم أولئك أيضاً أحفاد الحسين من أمثال أبي مسلم عبد الله بن علي بن عباس ، وبني الحسن بن علي بن أبي طالب ومنهم محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي ابن أبي طالب وأخيه ابراهيم ، وكلهم كانوا يرون أن الدعوة العباسية

هي دعوتهم ، والدولة التي انبثقت عن هذه الدولة هي دولتهم ، فنهضوا لمقارعة بني عمومتهم بني العباس ، وحاولوا انتزاعها من قبضتهم .

وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان هناك الروم الذين ظنوا أن الفرصة قد باتت مؤاتية لهم للكيد للإسلام وأهله ، وكذلك كان شأن الترك المتاخمين لحدود الدولة الإسلامية في أقصىٰ المشرق . وعلاوة على ذلك كله ، فقد كان من طبيعة الأمور أن تظهر طموحات الطامحين وأطماع الطامعين للإفادة من التناقضات جميعها . ولقد استطاعَ أبو العباس السفاح إرساء قواعد الدولة ، غير أن فترة حكمه لم تتجاوز الأربعة أعوام إلّا قليلاً . وكانت بذور التناقضات تحتاج لفترة حتى تزهر وتثمر ، فلما جاء أبو جعفر المنصور ، أخذت المتاعب في الظهور تباعاً ، ولقد وجدت هذه المتاعب في أبي جعفر المنصور رجلها الذي يواجهها ويحل معضلاتها .

لم تكن القضية بالنسبة لأبي جعفر المنصور هي قضية إقامة دولة ـ أي دولة ـ ولا قضية إرساء قواعد الحكم ـ أي حكم ـ وإنّما كانت قضية بناء الدولة العربية الإسلامية على قواعد ثابتة وأسس سليمة . وكان يعرف أن الشعوبية هي أخطر ما يتهدد الإسلام بالانحراف فبادر لقطع رأس الفتنة ـ أبي مسلم الخراساني ـ .

وعرف المنصور أنه من المحال ضمان استقرار الدولة بوجود مراكز القوى المتعددة ، فبادر بالقضاء على مناوئيه من أبناء عمومته ، أحفاد الحسين رضي الله عنه . وأدرك أنه من أبسط واجبات الدولة الإسلامية الدفاع عن ثغور المسلمين وحماية حدودهم وضمان أمنهم ، فبادر إلى حشد الحشود ، وزجّ الجيوش حتى أمكنَ له

القضاء على التهديد الخارجي .

وكان العامل الأكثر أهمية هو إحقاق الحقوق وإشاعة العدل ، ونشر الأمن ، وإقامة الحدود ، حدود الله ، والتطبيق الدقيق لأحكام الشريعة الإسلامية . فاختار من الولاة أفضلهم وأتقاهم ، وتابع أعمالهم ، وتشدَّد في مراقبتهم ومحاسبتهم ، فأمكن له بذلك إعادة بناء الدولة العربية ـ الإسلامية .

لقد ألزمَ المنصور نفسه بنظام صارم لا يحيد عنه : « كان شغله في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف ، وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعيّة لطرح عالتهم ، والتلطّف لسكونهم وهدوئهم . فإذا صلَّى العصر ، جلس لأهل بيته إلاَّ من أحبَّ أن يسامره ، فإذا صلَّى العشاء الآخرة ، نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق ، وشاور سماره من ذلك فيما أرب . فإذا مضىٰ ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرفَ سماره ، فإذا مضىٰ الثلث الثاني قام من فراشه ، فأسبغ وضوءه ، وصف في محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إيوانه » .

وكان من عادة المنصور الخروج إلى الناس ، وأبطأ مرة عن الخروج ، فقال الناس : هو عليل ، وكثروا . فدخل الربيع على المنصور وقال له : « يا أمير المؤمنين ! لأمير المؤمنين طول البقاء . والناس يقولون » . وسأله المنصور : « ما يقولون ؟ » . فرد الربيع : « يقولون : عليل » : فأطرق المنصور قليلاً ثم قال : « يا ربيع ! ما لنا وللعامة ؟! إنَّما تحتاج العامة إلى ثلاث خلال ، فإذا فعل ذلك بها فما حاجتهم ؟ إذا أقيم لهم من ينظر في أحكامهم فينصف بعضهم من

بعض ، ويؤمن سبلهم حتى لا يخافوا ليلهم ولا نهارهم ، ويسد ثغورهم وأطرافهم ، حتى لا يجيئهم عدوهم ، وقد فعلنا ذلك بهم » ثم مكث أياماً خرج بعدها للناس[1] .

ذلك هو المنصور ، رجل الدولة العربية - الإسلامية ، أمضىٰ اثني وعشرين عاماً من عمره مجاهداً في سبيل الله ، مدافعاً عن دينه ، حامياً لحدوده ، جراراً لجيوشه ، فاستقرَّت الدولة العباسية بعد اضطراب ، وتوحَّدت دولة العرب المسلمين بعد تمزق .

وكأنَّ ما بذله المنصور من جهد وجهاد لم يكن كافياً ، فمضىٰ لتشجيع الحركة العمرانية ، وتلك هي بغداد المسلمين ، تعيش مزهوة لتذكر ببانيها وواضع أساس تشييدها ، المنصور . وتلك هي (الرصافة) أخت بغداد وتوأمها ، هي من بعض ما تركه المنصور للدنيا . وبالمنصور وبمعاوية بن أبي سفيان من قبل ، وحفِيده عبد الرَّحمٰن الداخل ، عرفت الدنيا عزّ العرب المسلمين ومجدهم بما أعطوه للدنيا من عطاء خالد ، لا في مجال البنيان والعمران ، وإنَّما في مجال الأمثولة الفضلىٰ ، والنموذج الأعلى للإنسان العربي المسلم ، قائداً وحاكماً ومجاهداً في سبيل الله ؛ يعمل لآخرته ، ويبني لأمته ، أمة العرب المسلمين .

وتبقى سيرة المنصور نموذجاً مميزاً في حدود التجربة التاريخية ، تضم من الفائدة بما يتجاوز حدودها الزمنية والمكانية . إنها تجربة الدولة الإسلامية في الرجل العربي - المسلم ، وتجربة الإنسان العربي المسلم في بناء الدولة ، وسط بحر الدماء والاضطرابات .

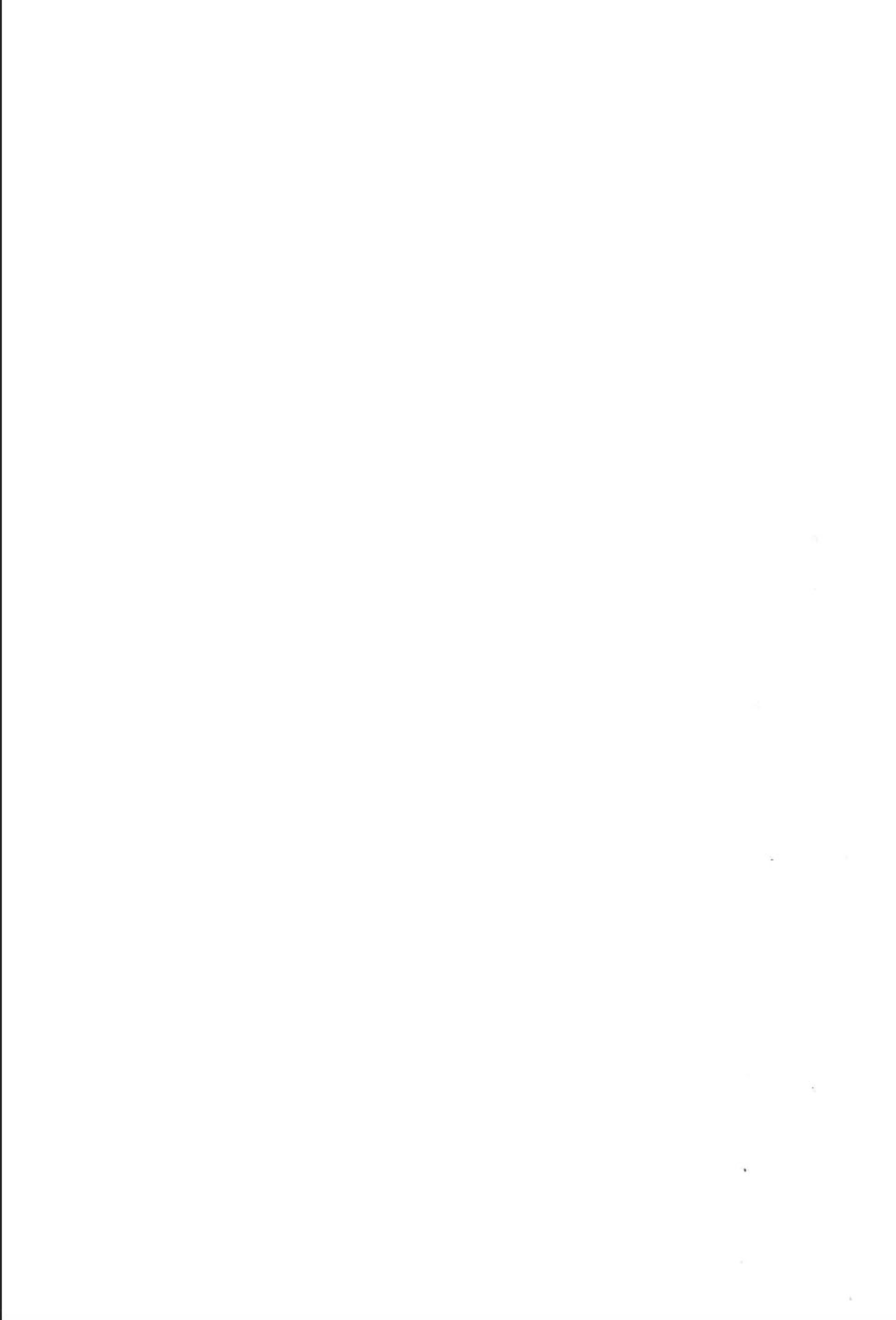
---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٧٠ و ٨٥ .

وهي قصة قدر الأمة الإسلامية ، كلما عصفت بها العواصف ، واجتاحتها النوائب ، فيقيض الله لها من يقيلها من عثرتها ، ويرفع من شأنها ، فتعود وهي أقوى من كل العواصف والنوائب .

والله ناصر دينه ، وناصر من ينصره .

بسام العسلي



المنصور ـ وابنه المهدي

قال المنصور : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعفّ منهم ؛ إنهم أركان الملك ولا يصلح الملك إلاّ بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلاّ بأربع قوائم ، إن نقصت واحدة وهيَ وضعف . أما أحدهم فقاضٍ لا تـأخذه في الله لـومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غني ، والرابع . . . ، ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة : آه . . آه . . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ . قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة » .

وأوصىٰ المنصور ابنه المهدي ، بقوله :

« يا أبا عبد الله ! استدم النعمة بالشكـر ، والقدرة بـالعفو ، والطاعة بالتآلف ، والنصر بالتواضع ، ولا تنس مع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله .

يا أبا عبد الله ! لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه ؛ فإن فكر العاقل مرآته ، تريه حسنه وسيئه .

يا أبا عبد الله ! لا يصلح السلطان إلاَّ بالتقـوى ، ولا تصلح رعيّته إلاَّ بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثـل العدل ، ولا تـدوم نعمة السلطان وطاعته ، إلاَّ بالمال ، ولا تقدُمُ في الحياطة (الحيطة) بمثل نقل الأخبار . وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمَه باختباره . لا تجلس مجلساً إلاَّ ومعكَ من أهل العلم من يحدثك ، فإن محمد ابن شهاب الزهري قال : الحديث ذكر ولا يحبه إلاَّ ذكور الرجال ، ولا يبغضه إلاَّ مؤنثوهم . وصدق أخو زهرة .

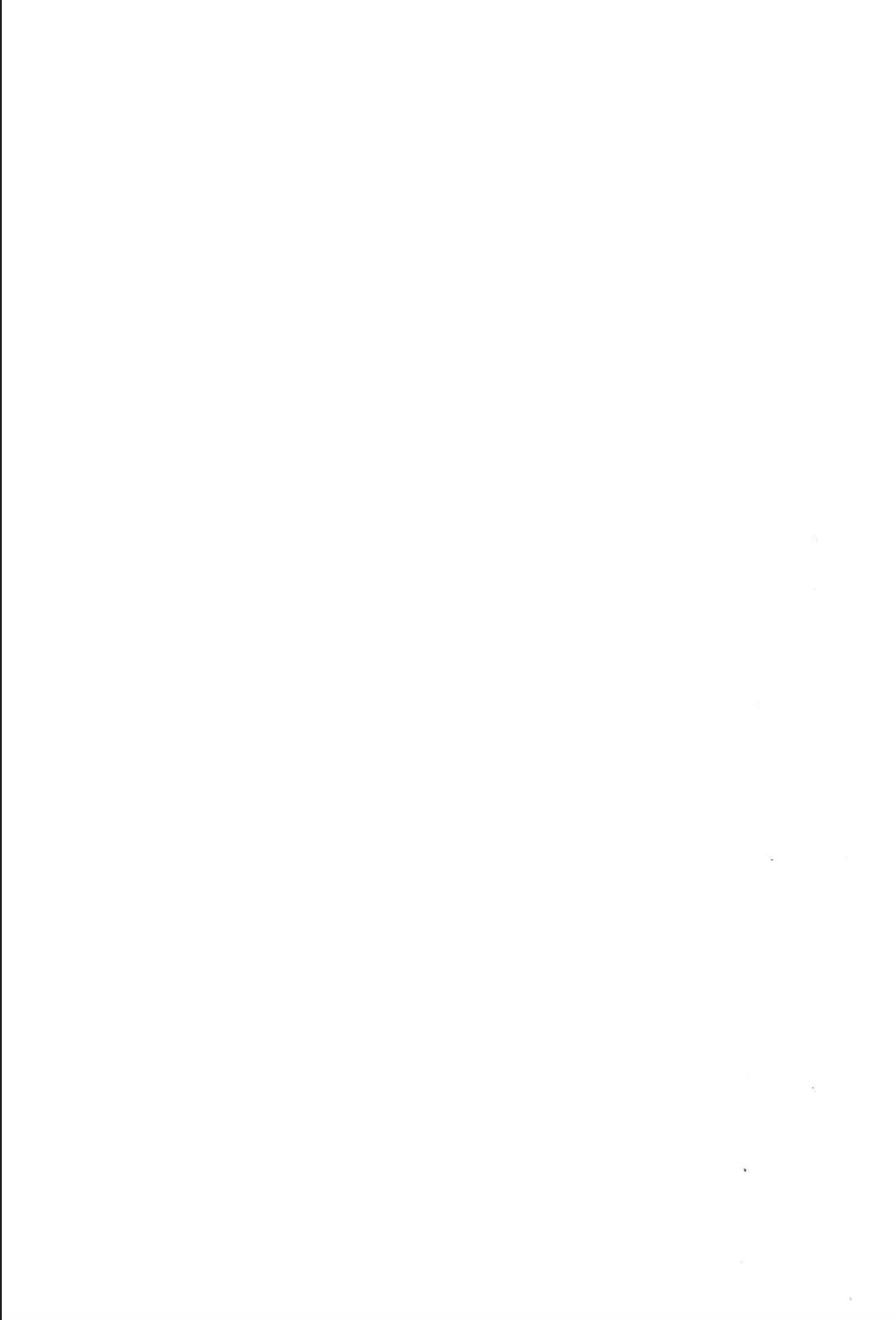
يا أبا عبد الله ! من أحبَّ الحمد أحسن السيرة ، ومن أبغض الحمد أساءها . وما أبغض أحدُ الحمد إلاَّ استذم ، وما استذمَّ إلاَّ كرِه ، واعلم أنه ليس العاقل هو الذي يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكنه الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه » .

« ودخل المهدي يوماً على أبيه المنصور ، فسلم وجلس ، ثم قام منصرفاً ، وأتبعه أبو جعفر بصره لحبه له وإعجابه به ، فلما توسط الرواق ، عثر بسيفه ، فتخرق رداؤه ، وكان عليه قباء أسود جديد ، فقامَ ومضىٰ لوجهه غير مكترث لذلك ولا حافل به . فقال أبو جعفر: ردُّوا أبا عبد الله ، فردّوه إليه . فقال له : يا أبا عبد الله ! استقلالاً للمواهب ؟ أم بطراً للنعمة ؟ أم قلة علم بموضع المصيبة ؟ كـأنَّك جاهل بما لك وعليك ؟ إن هذا الذي أنت فيه عطاء من الله ، إن شكرته عليه زادك ، فإن عرفت موضع البلاء منه فيه عافاك . فقـال المهدي : لا أعدمنا الله بقاءك يا أمير المؤمنين وإرشادك ، والحمد لله على نعمه ، وأسأل الله الشكر على مواهبه ، والخلف الجميل برحمته . ثم انصرف » .

« وكان أبو جعفر المنصور يعرف بلباس جُبة هَرَوِيَّة مرقوعة ، وكان يرقع قميصه ، فقال ابنه جعفر : الحمد لله الذي لطف له حتى ابتلاه بفقر نفسه ـ أو قال ـ : بالفقر في ملكه »[1] .

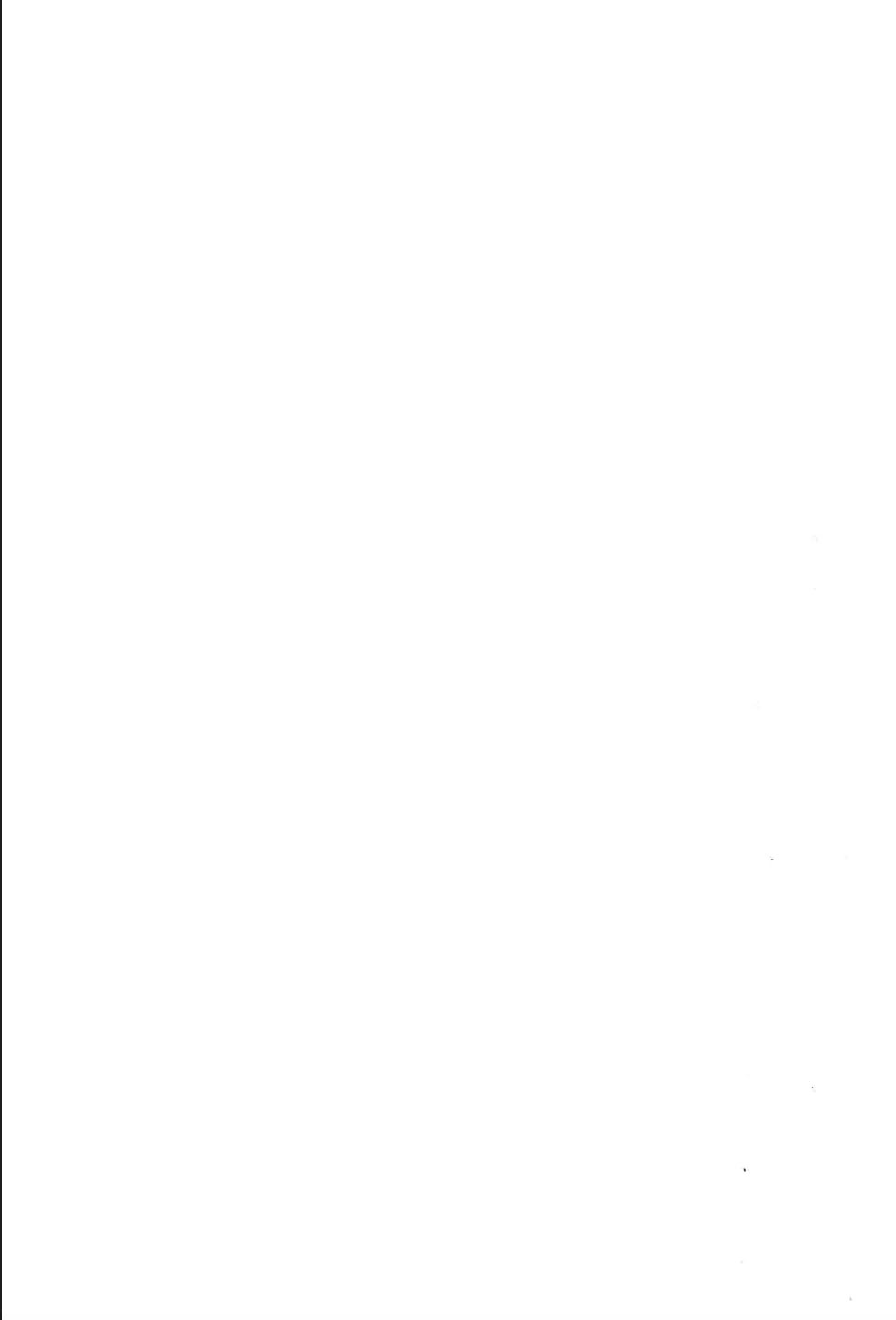
---

(1) تاريخ الطبري ٨/ ٦٧ و ٧١ و ٧٢ و ٧٥ و ٨١ .

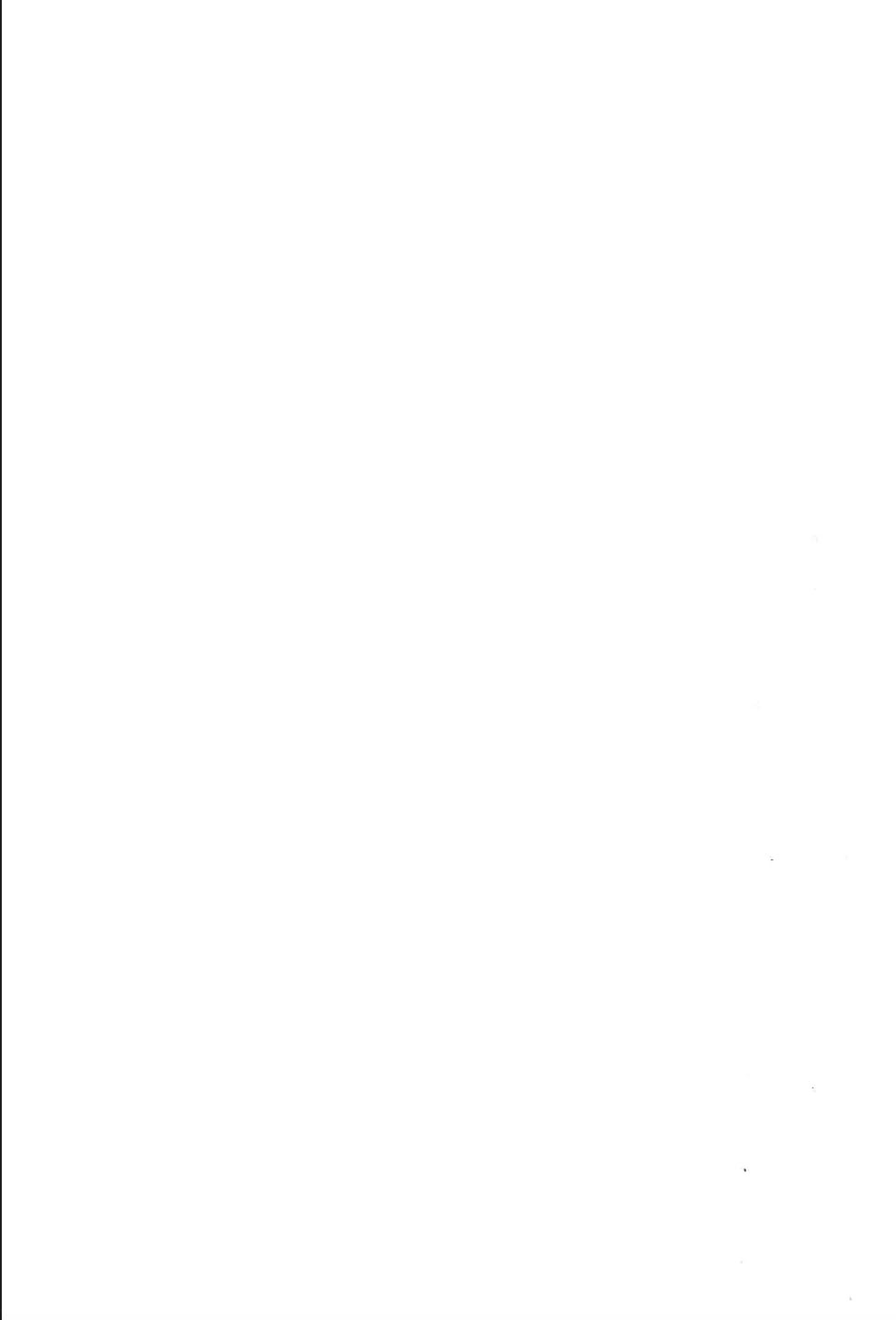


الوجيز في حياة عبد الله بن محمد أبي جعفر المنصور ٩٥ ـ ١٥٨ هـ = ٧١٣ ـ ٧٧٤ م

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٩٥	٧١٣	ولادة أبي جعفر المنصور بالحميمة من أرض السراة .
٩٥	٧١٣	عودة موسىٰ بن نصير من الأندلس إلى الشام ، ووفاة الحجّاج بن يوسف الثقفي .
٩٦	٧١٤	قيام قتيبة بن مسلم بفتح كاشغر ، ووفاة الخليفة الأموي الوليد وولاية أخيه سليمان .
٩٨	٧١٦	حصار القسطنطينية .
٩٩	٧١٧	وفاة سليمان وخلافة عمر بن عبد العزيز .



السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
		معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم بلاد الأندلس وإقامة الحكم الأموي فيها .
١٤١	٧٥٨	خروج الراوندية أشياع أبي مسلم الخراساني . وقتلهم .
١٤٦	٧٦٣	انتهاء بناء مدينة بغداد وانتقال المنصور إليها .
١٥١	٧٦٨	بناء الرصافة .
١٥٧	٧٧٣	بناء قصر الخلد على شاطىء دجلة .
١٥٨	٧٧٤	وفاة أبي جعفر المنصور في بئر ميمون ، على بعد أميال من مكة المكرّمة وهو في طريقه للحج .



الملوك تحتمل كل شيء من أصحابها إلا ثلاثاً :
إفشاء السر ، والتعرض للحرمة ، والقدح في الملك .

من أقوال المنصور

تاريخ الطبري ٨/ ٨٨

الفصل الأول

١ ـ نجم هوى ونجم صعد وعلا .
٢ ـ خلافة المنصور .
٣ ـ ثورة عبد الله بن علي .
٤ ـ القضاء على أبي مسلم الخراساني .
٥ ـ ثورة سنباذ والراوندية غضباً لأبي مسلم .
٦ ـ متاعب على جبهة الشرق .
٧ ـ الصراع ضد الهاشميين .
٨ ـ ثورة محمد بن عبد الله ومقتله .
٩ ـ ثورة ابراهيم بن عبد الله ومقتله .
١٠ ـ من الحرب إلى الإعمار والبناء .

الملوك تحتمل كل شيء من أصحابها إلا ثلاثاً :
إفشاء السر ، والتعرض للحرمة ، والقدح في الملك .

من أقوال المنصور

تاريخ الطبري ٨/٨٨

الفصل الأول

١ ـ نجم هوى ونجم صعد وعلا .
٢ ـ خلافة المنصور .
٣ ـ ثورة عبد الله بن علي .
٤ ـ القضاء على أبي مسلم الخراساني .
٥ ـ ثورة سنباذ والراوندية غضباً لأبي مسلم .
٦ ـ متاعب على جبهة الشرق .
٧ ـ الصراع ضد الهاشميين .
٨ ـ ثورة محمد بن عبد الله ومقتله .
٩ ـ ثورة ابراهيم بن عبد الله ومقتله .
١٠ ـ من الحرب إلى الإعمار والبناء .

١ ـ نجم هوى ، ونجم صعد وعلا

لم تتوقف محاولات القضاء على الدولة العربية الإسلامية منذ بزوغ فجر الإسلام ، ومنذ أن أظهر الله دينه الحق للناس كافة ، ولم تكن مؤامرة الفتنة الكبرى ، وقتل عثمان بن عفان رضوان الله عليه إلا محاولة لإطفاء نور الحق ، وإلا محاولة لإخماد جذوة الإسلام المتوهجة . ثم جاءت محاولة قتل قادة المسلمين ، علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، رضوان الله عليهم في المؤامرة المعروفة في التاريخ باسم (فتنة ١٧ رمضان سنة أربعين للهجرة = ٦٦٠م) وهي المؤامرة التي ذهب ضحيتها أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه ، لتسير على الاتجاه ذاته ، اتجاه القضاء على الدولة الإسلامية. ثم أقام معاوية بن أبي سفيان دولة بني أمية ، في الشام ، لتوحد جهد المسلمين ، ولتجمع على الحق والخير والهدى كلمتهم ، ثم جاء مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان ليعملا على تجديد الدولة العربية الإسلامية وليمنحاها المزيد من الثبات والاستقرار ، فازدهرت دولة بني أمية ، ونشرت عبر فتوحاتها راية الإسلام ما بين أقصى المشرق وأقصى المغرب .

غير أن خلفاء بني أمية جابهوا عبر عهودهم المتتالية حرباً شعواء على جبهتهم الداخلية لم تتوقف في يوم من الأيام إلا لتعود للتفجر

وهي أكثر هولاً وأشد ضراماً وأقوى عنفاً ؛ فقد كان الجهد المبذول يستقطب إليه المزيد من القوى المضادة ، واشترك في هذا الجهد مزيج من القوى ، جمعها الحقد على الدولة العربية الإسلامية الأموية ، وباعد بينها الهدف من القضاء على الدولة الأموية . وهكذا استمر بنو أمية في حرب دائمة على جبهتي الداخل والخارج ، فكان لزاماً أن تستنزف هذه الجهود قدرة الدولة وإمكاناتها .

كانت (قريش) هي أول من تصدت لمجابهة دعوة الإسلام وقاومت الرسالة بمقاومتها لرسول الله ﷺ ، ووقفت معها مراكز المقاومة التي ما أرادت لقريش خيراً ولا عزاً بالإسلام . وعندما اتسعت دائرة المسلمين فشملت جزيرة العرب ، ظهرت أقوام شتى فأخذت على عاتقها محاربة الإسلام وأهله ؛ فكانت حروب الردة تعبيراً عن التحول في مقاومة الإسلام . ولم يكن هدف أصحاب الردة من حربهم هو القضاء على الإسلام وانما كان هدفهم هو الانتقاص منه (منع الزكاة وانتقاص بعض فرائض الصلاة) . وجابه الصديق هذا التحول بصلابة المؤمن ، وثبات المسلم ، وخرج الإسلام من محنته وهو أكثر قوة وأشد ألقاً وتوهجاً .

ثم جاءت الفتنة الكبرى ، وظهر تحول جديد على الهدف ، فقد أراد أصحاب الفتنة القضاء على الدولة الإسلامية وهي في المراحل الأولى من تشكلها ، وظهر الحقد واضحاً على أعداء الإسلام ؛ فقد ضاق صدر هؤلاء بما أحرزه المسلمون من قوة باجتماعهم ، وما وصلوا إليه من عزة باجتماع كلمتهم ، فانطلقوا يرومون تفتيت هذه القوة والنيل من هذه العزة ، والعزة لله جميعاً ولعباده المسلمين ، فانتصر العرب المسلمون مرة أخرى بفضل تمسكهم بأهداب الدين ، لقد نصروا الله فنصرهم . وجاء بنو أمية ،

فأمسكوا بزمام الموقف ، وحملوا الراية ، وانطلقوا الى رحاب الدنيا ، وهم يجاهدون أعداء الدين من الحاقدين ، قدر مقاومتهم للخارجين على الطاعة والجماعة .

لقد بدأت مقاومة الإسلام في قريش ذاتها ، ثم انتقلت إلى العرب ممن لا زالت جاهليتهم وعصبياتها تغلب فيهم على الإسلام والإيمان به ، وممن اعتنقوا الإسلام ولم يأخذ الايمان عليهم حياتهم ووجودهم ، وكان هؤلاء أعجز من أن ينافسوا قريش في فهم الدين وشرائعه وأحكامه ، فأخذوا في التفرقة بين آل البيت ، وظهر ذلك واضحاً في الفتنة الكبرى .

وعندما اتسعت دائرة الإسلام لتشمل بلاد فارس شرقاً ومصر وافريقية غرباً ، انضمت إلى الإسلام أمم شتى وشعوب متباينة ، وتكرر ما حدث في وسط العرب ذاتهم ولكن على نطاق اكبر اتساعاً ؛ فقد آمنت أقوام وصدقت في إسلامها ، وتظاهرت أقوام بالإسلام وفهمته فهم الجاهلية ، وتشكل من هؤلاء نويات الانحراف في الملل والنحل ، كما تشكلت مراكز جديدة للمقاومة ، ولكن هذه المراكز بقيت متفرقة ، متناحرة فيما بينها في كثير من الأحيان مما ساعد خلفاء بني أمية على إجهاضها وتدميرها على التتابع .

أثناء ذلك ، بقي الخلاف مستمراً بين أبناء العمومة من بني عبد مناف ، وخاصة بين بني أمية وبني علي بن أبي طالب والعباس (الهاشميين) وهو خلاف في الاجتهاد لتطبيق سنن الله وشرائعه ، وهو أمر من طبيعة الدين وطبيعة الحياة ذاتها ؛ غير أن مراكز المقاومة لما وجدت نفسها أعجز من مقاومة الإسلام رغبت في حمل راية الدعوة لآل البيت لبلوغ غاياتها ، والاستئثار براية الإسلام ـ دون العرب ـ .

وتجمعت السحب القاتمة في سماء المشرق ، فيما كانت الدولة الأموية في الشام تعاني من صراعات شتى بين أبناء العمومة من الأمويين ذاتهم ، ومن سواهم ، وأصبحت الشام أعجز من أن تجابه الهجمات الموجّهة إليها من كل صقع ، فأخذت في الترنح ، حتى جاءت جحافل أهل خراسان ومن والاهم ، لتجهز على دولة العرب المسلمين في الشام ، فهوى نجم وصعد نجم وارتفع .

ولكن كيف سقط نجم الدولة الأموية وهوى بمثل تلك السرعة ؟، وكيف صعد نجم الدولة العباسية وارتفع بسرعة مماثلة ؟ هل هو نتيجة لضعف آخر خليفة أموي ـ مروان بن محمد ـ وبسبب سوء إدارته ؟ أم هو نتيجة لتفوق العباسيين في التنظيم ؟

لقد كان المؤرخون المسلمون اكثر انصافاً وأكثر واقعية في عرضهم لتسلسل الأحداث خلال المرحلة الأخيرة من عمر الدولة الأموية ،وأثناء الأيام الأولى من قيام الدولة العباسية . فالخليفة الأموي مروان بن محمد ، لم يكن بالقائد الضعيف أو الذي يفتقر للخبرة ، ذلك أنه عاش سنوات حياته قبل الخلافة في ميادين الحروب ، وكان النصر حليفه باستمرار ، وعلى هذا ، فانه عندما خاض معركة (الزاب) الشهيرة ضد العباسيين ، ثم لحقت به الهزيمة ، عرف أن القضية ليست مجرد قضية خسارة معركة أو كسبها ، بقدر ما هي قضية إقامة نظام جديد أكثر قوة واكثر تماسكاً ، وهذا ما دفعه لمغادرة ميدان المعركة هائماً على وجهه ، لا يعرف أين يستقر به المقام ، ولا يدري ماذا يفعل . لقد اهتزت الأرض بعنف من تحت أقدامه ، فكانت هزيمته في الزاب أبعد من أن تكون مجرد هزيمة عسكرية ، تتحكم فيها العوامل المعروفة في حسابات الصراع المسلح .

لم تكن قضية سقوط النجم الأموي وصعود النجم العباسي اكثر من قضية حوار بين الإرادات المتصارعة ، وهو حوار لم يكن خفياً أو سرياً رغم تدابير الحيطة التي اتخذها دعاة بني العباس (والنقباء) ؛ فقد كانت عيون بني أمية يقظة ، مستنفرة ، وقد جاءت التحذيرات تترى على عاصمة بني أمية ـ دمشق ـ غير أن الصراعات الداخلية لم تترك لمروان بن محمد شيئاً من القدرة لدفع الخطر الداهم الوافد من الشرق . وعلى هذا ، لم تكن (معركة الزاب) سوى نهاية لصراع مرير استمر سنوات متطاولة قبل أن يصل إلى حدود بلاد الشام . ولعل هذا هو ما يفسر تخبط مروان بن محمد في اتخاذ القرارات خلال المراحل الأخيرة من الصراع المسلح ، وهذا هو بدقة ما أذهل الكتاب والمؤرخين الذين عرفوا في مروان بن محمد (الحمار) أو (الجعدي) مقاتلاً عنيداً ، صلباً ، وقائداً كبيراً توافرت له الكفاءة القيادية العالية بقدر ما توافرت له الخبرات الكثيرة في ميادين القتال وإدارة الحروب .

وعلى كل حال ، فالصراع الأموي ـ العباسي ، لم يكن مجرد صراع مسلح بقدر ما كان صراعاً عقائدياً مارست فيه العوامل النفسية (المعنوية) دوراً هائلاً ؛ إذ استطاع نقباء بني العباس ودعاتهم تفجير الأحقاد الدفينة ضد الدولة العربية ـ الإسلامية ـ دولة بني أمية ـ فانطلقت جحافل الخراسانيين في حرب إبادة لم تخل في كثير من الأحيان من المظاهر الوحشية التي لا تمت لا للخلق العربي ولا للفضائل الإسلامية بأية صلة ؛ وكان ذلك عاملاً حاسماً فتّ في عضد الدولة الأموية وولاتها في أقاليم المشرق ، ولم يكن باستطاعة نقباء بني العباس ودعاتهم رغم ذلك كله ، تحقيق انتصاراتهم لولا ذلك التفتت المعنوي الذي نزل بالقَبائل العربية المستقرة في المشرق .

وقد أفاد دعاة بني العباس ، وحتى أبعد الحدود التي يمكن تصورها ، لحرمان القبائل العربية من فرصة توحيد الكلمة ، وتوحيد الجهد ، لمجابهة خطر بني العباس ودعاتهم . وكان الأسلوب الذي اتخذه العباسيون مزيجاً من الترغيب والترهيب ، فأمكن خداع من كان يرغب في قبول الخداع ، وأمكن إرهاب من كان لديه استعداد للخضوع لسيف الإرهاب ، وقتل من رفض الخضوع لابتزاز الترغيب والترهيب ، فكان في ذلك بعض عدة الدعوة العباسية لتحقيق انتصارها على أعدائها .

جاء (أبو العباس السفاح) ليكون أول خليفة عباسي ، غير أن مدة خلافته القصيرة لم تسمح له ببناء الدولة التي يريد ، فترك هذه المهمة لأخيه (أبو جعفر المنصور) . ولم تكن عملية بناء الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية بالعملية السهلة أو الهينة ؛ فقد كان المنصور يعرف فضل الدولة الأموية في رفع راية الإسلام واعزاز العرب المسلمين ، فكان لزاماً عليه أن ينهج على سيرتهم ، وأن يحذو حذوهم . وكان يعرف في الوقت ذاته أن الدعوة العباسية قد ضمت إليها شتاتاً بات يتهدد الدولة العربية الإسلامية بخطر الشعوبية ، فكان لزاماً على المنصور أن يشن حرباً شعواء على الشعوبية ودعاتها ، وكان ذلك يلتقي بدوره مع اعمال الدولة الأموية وأهدافها .

وإذن فقد كان لا بد لمؤسس الدولة العباسية الحقيقي (أبو جعفر المنصور) من أن يعتبر دولته استمراراً لدولة بني أمية وتطويراً لها ، وأن التغيير لا يعدو كونه تغيير في (الأشخاص) وأن الخلاف بين الدولتين ليس أكثر من خلاف بين أبناء العمومة في موضوع (الشرعية) .

٢ ـ خلافة المنصور

تولى المنصور بعد قيام الدولة العباسية ولاية الجزيرة الشامية وأرمينية وأذربيجان . وفي سنة (١٣٧ هـ) وصلته رسالة من أخيه (أبي العباس السفاح) ، جاء فيها : « . . . لقد كتب إلي أبو مسلم ـ الخراساني ـ يستأذن في الحج ، وإنما أراد أن يصلي بالناس ، وقد أذنت له ، وقد ظننت أنه إذا قدم يريد أن يسألني أن أوليه إقامة الحج للناس ، فاكتب إلي تستأذنني في الحج ، فإنك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك » . فكتب أبو جعفر إلى أبي العباس يستأذنه في الحج فأذن له . . . ولما علم أبو مسلم الخراساني ، وهو بالانبار ، قال : « أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ؟ » واضطغنها عليه .

كان أبو مسلم الخراساني قد كتب الى أبي العباس السفاح يستأذنه في القدوم للحج ، فأذن له ، وكتب إليه أبو العباس أن أقدم في خمسمائة من الجند ، فكتب إليه أبو مسلم : « . . . إني قد وترت الناس ، ولست أمن على نفسي » فرد عليه أبو العباس برسالة جاء فيها : « . . . أن أقبل في ألف ، فإنما أنت في سلطان أهلك ودولتك ، وطريق مكة لا تحتمل العسكر » فشخص في ثمانية

آلاف ، فرقهم فيما بين نيسابور والري ، وقدم بالأموال والخزائن ، فخلفها بالري ، وجمع أيضاً أموال الجبل ، وشخص منها في ألف وأقبل على أبي العباس في جماعة من أهل خراسان عظيمة ، ومن تبعه من غيرهم من الأنبار ، فأمر أبو العباس الناس باستقباله والترحيب به ، فتلقاه الناس ، وأقبل إلى أبي العباس ، فدخل عليه ، فأعظمه وأكرمه ؛ ثم استأذن أبا العباس في الحج ، فقال له : « لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على الموسم » ، وأنزله قريباً منه ، فكان يأتيه في كل يوم يسلم عليه .

وتوجه الحجُيج إلى مكة المكرمة ، فكان أبو مسلم يصلح العقاب (يتودد إلى الناس) ، ويكسو الأعراب في كل منزل ، ويصل من سأله ، وحفر الآبار ، وسهل الطرق ، فكان الصوت له ، وأصبح الأعراب يقولون « هذا المكذوب عليه » ، أي أنه لم يكن مجرماً قاتلاً كما اشتهر عنه ، حتى قدم مكة ، فنظر إلى اليمانية ـ أو أهل اليمامة ـ فقال : « . . . أي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان ، سريع الدمعة . . . » . .

انتهت مناسك الحج ، فما كان من أبي مسلم إلا أن نفر قبل أبي جعفر ، وتقدمه . فلما كان في منزل من منازل مكة ـ بين البستان وذات عرق ـ وصل النذير ينعي أبي العباس السفاح ، وكان أبو مسلم قد سبق المنصور بمرحلة ، فعرف الخبر قبله ، فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . عافاك الله وأمتع بك ، إنه أتاني أمرٌ أفظعني وبلغ مني مبلغاً لم يبلغه شيء قط ، لقيني محمد بن الحصين بكتاب من عيسى بن موسى إليك بوفاة أبي العباس أمير المؤمنين رحمه الله . فنسأل الله أن يعظم أجرك ، ويحسن الخلافة

عليك ، ويبارك لك فيما أنت فيه . إنه ليس من أهلك أحدٌ أشد تعظيماً لحقك ، وأصفى نصيحة لك ، وحرصاً على ما يسرك مني » . واكتفى أبو مسلم بهذه الرسالة ، ولم يبعث الى أبي جعفر بالبيعة ، وأراد ترهيب أبي جعفر بتأخيرها .

كان أبو العباس السفاح عندما حضرته الوفاة ، قد أمر الناس بالبيعة لأخيه عبد الله بن محمد أبي جعفر ، فبايع الناس له بالأنبار في اليوم الذي مات فيه أبو العباس ، وقام بأمر الناس (عيسى بن موسى) الذي أرسل إلى أبي جعفر ـ وهو بمكة ـ محمد بن الحصين العبدي ، يخبره بموت أبي العباس وبالبيعة له ، فلقيه بمكان من الطريق يقال له (زكية) فلما جاءه الكتاب ، دعا الناس ، فبايعوه ، وسأل المنصور: « أين موضعنا هذا ؟ » فقيل له : « زكية » فتفاءل وقال : « أمر يَزكَى لنا إن شاء الله تعالى » .

أراد أبو جعفر المنصور أن يضم إليه قوات أبي مسلم الخراساني قبل وصوله إلى الكوفة ، غير أن يزيد بن أسيد السلمي نصح المنصور وقال له : « إني أكره أن تجامعه في الطريق ، والناس جنده ، وهم له أطوع وله أهيب ، وليس معك أحد » فأخذ برأيه ؛ فكان يتأخر حتى يبقى أبو مسلم متقدماً عليه . وأمر أبو جعفر أصحابه ، فاجتمعوا جميعاً ، وجمع سلاحهم ، حتى وصلوا جميعاً الى الأنبار . وهناك علم باقدام شيعة علي باعلان الثورة تحت قيادة (عبد الله بن علي) الذي ما إن علم بموت أبي العباس السفاح حتى أمر منادياً فنادى : (الصلاة جامعة) فاجتمع إليه القواد والجند ، فقرأ عليهم الكتاب بوفاة أبي العباس ، ودعا الناس الى نفسه ، وأخبرهم ان أبا العباس حين أراد أن يوجه الجنود لقتال مروان بن محمد ، دعا بني أبيه ، فأرادهم على المسير إلى مروان بن محمد ، وقال : « من انتدب

منكم فسار إليه فهو ولي عهدي ، فلم ينتدب له غيري ، فعلى هذا خرجت من عنده ، وقتلت من قتلت » فقام أبو غانم الطائي ، وخفاف المروروذي في عدة من قواد أهل خراسان ، فشهدوا له بذلك . فبايع له أبو غانم وخفاف وأبو الأصبغ وجميع من كان معه من أولئك القواد ، فيهم حميد بن قحطبة وخفاف الجرجاني وحياش بن حبيب ومخارق بن غفار وتُرار خُدا وسواهم من أهل خراسان والشام والجزيرة ، وقد نزل تل محمد ، فلما فرغ من البيعة ارتحل فنزل حران ، وبها (مقاتل العكي) . وكان أبو جعفر قد استخلفه قبل ذهابه للحج ، ووجه عبد الله بن علي دعوة الى مقاتل طلب إليه مبايعته بالخلافة ، غير أن مقاتلاً لم يستجب لدعوته ، وتحصن ، واستعد للقتال ، فعمل (عبد الله بن علي) على ضرب الحصار ، إلى أن تمكن من استنزال (مقاتل) من حصنه ، وقتله .

جزع المنصور جزعاً شديداً ، فقال له أبو مسلم : « ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ » فقال المنصور : « أتخوف شر عبد الله بن علي وشيعة علي ! » فقال له أبو مسلم : « **لا تخفه ، فأنا أكفيك أمره إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه أهل خراسان ، وهم لا يعصونني** » فعقد له ، وقال له : « سر إلى إبن علي » فقال له أبو مسلم : « إن عبد الجبار بن عبد الرحمن ، وصالح بن الهيثم ، يعيبانني ، فاحبسهما » . فقال أبو جعفر : « إن عبد الجبار على شُرَطي ، وكان قبل على شُرط أبي العباس ، أما صالح بن الهيثم فهو أخو أمير المؤمنين من الرضاعة ، فلم أكن لأحبسهما لظنك بهما » فقال أبو مسلم : « أراهما آثر عندك مني ! » فغضب أبو جعفر ، فتدارك أبو مسلم الموقف وقال : « لم أرد كل هذا » ، ومضى لقتال عبد الله بن علي .

٣ - ثورة عبد الله بن علي

كـان عبد الله بن علي ، قـد حضر إلى الأنبـار ، فكلفه أبـو العباس السفاح بقيادة الصائفـة لغزو بـلاد الروم . فخـرج عبد الله بجيشه الذي ضم إليه أهل خراسان والشام والجزيـرة والموصـل ، وسار به حتى وصل (دُلُوك) على حدود بلاد الروم ، وهناك وصله نعي أبي العباس ، فجمع الناس ، وأخذ البيعة لنفسه ، فوجه أبـو جعفر جيشاً لقتاله بقيادة (أبي مسلم الخراساني) . فلما بلغ عبد الله اقبال أبي مسلم ، أقام (بحران) وجمع إليه الجنود والسلاح ، وأمر بحفر الخنادق ، وجمع اليه الطعام والعلوفة وما يحتاجه ، ومضى أبو مسلم سائراً من (الأنبار) ولم يتخلف عنه من القواد أحد .

كان عبد الله بن علي عندما علم بمسير أبي مسلم إليه ، يقوم بحصار (حران) على نحو ما سبقت الإشارة إليه ، واستطاع قائـد حامية حران (مقاتل العكي) الصمود اربعين ليلة ، وخشي عبد الله أن يباغته أبو مسلم بالهجوم وهو مشغول بحصار حـران ، فأعـطى مقاتل العكي الأمان ، فخرج إليه مقاتل فيمن كان معه ، وأقام معه أيـاماً يسيـرة ، ثم عمل (عبـد الله) على توجيـه (مقـاتـل العكي وولديه) إلى الرقة ومعه كتاب من عبد الله بن علي إلى والي الرقة

(عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدي) . فلما قدموا على عثمان ، وقرأ الكتاب ، قتل العكي وحبس ابنيه ، ثم عمل على قتلهما أيضاً .

كان جيش (عبد الله بن علي) يضم أعداداً كبيرة من الخراسانيين ، وخاف عبد الله أن يغدر به هؤلاء وأن ينضموا إلى (أبي مسلم) فأمر صاحب شرطته بقتلهم ، فقتل منهم سبعة عشر ألفاً . وكان (حميد بن قحطبة) من أوائل الذين بايعوا (عبد الله بن علي) ، غير أن عبد الله شك بصدق ولاء حميد بن قحطبة ، فوجهه إلى واليه في حلب (زفر بن عاصم) وحمله كتاباً جاء فيه : « إذا قدم عليك حميد بن قحطبة فاضرب عنقه » . وسار حميد نحو حلب ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، فكر في كتابه ، وقال : « . . . إن ذهابي بكتاب ولا أعلم ما فيه لغرر » ففك الطومار ، فقرأه ، فلما رأى ما فيه دعا أناساً من خاصّته فأخبرهم الخبر ، وأفشى إليهم أمره ، وشاورهم ، وقال : « من أراد منكم أن ينجو ويهرب ، فليسر معي ، فإني أريد أن آخذ طريق العراق . . . أما من لم يرد منكم أن يحمل نفسه على السير ، فلا يفشينَّ سري ، وليذهب حيث أحب » . فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه ، ففوز بهم وبهرج الطريق[1] فأخذ على ناحية من الرصافة ، رصافة هشام بالشام ، وبالرصافة يومئذ مولى لعبد الله بن علي يقال له (سعيد البربري) ، فبلغه ان حميد بن قحطبة قد خالف عبد الله بن علي ، وأخذ في المفازة ، فسار فيمن معه من فرسانه ، فلحقه ببعض الطريق ، فلما بصر به حميد ، ثنى فرسه نحوه حتى لقيه ، وقال له :

---

(١) فوز ؛ سلك المفازة ، وبهرج الطريق : سلك طريقاً غير الطريق الذي يسير الناس عليه عادة .

« ويحك ! أما تعرفني ؟ والله ما لك في قتالي من خير ، فارجع ، فلا تقتل أصحابي وأصحابك ، فهو خير لك » فرجع سعيد البربري الى الرصافة ، ومضى حميد بن قحطبة الى العراق .

أقبل أبو مسلم الخراساني بجيشه ، فنزل قريباً من مواقع جيش (عبد الله بن علي) وكتب اليه رسالة جاء فيها : « إني لم أؤمر بقتالك ، ولم أوجه له ، ولكن أمير المؤمنين ولّاني الشام ، وإنما أريدها » . فقال من كان مع عبد الله من أهل الشام لعبد الله : « كيف نقيم معك ، وهذا يأتي بلادنا ، وفيها حرمنا ، فيقتل من قدر عليه من رجالنا ، ويسبي ذرارينا ، ولكنا نخرج الى بلادنا ، فنمنعه حَرَمنا وذرارينا ونقاتله إن قاتلنا » فقال لهم عبد الله ابن علي : « إنه والله ما يريد الشام ، وما وجه إلا لقتالكم ، ولئن أقمتم ليأتينكم » . غير أن أهل الشام أبوا إلا المسير الى بلادهم ، وقرروا مفارقة عبد الله ، واضطر عبد الله للسير مع أهل الشام ، فغادر معسكره . وأسرع أبو مسلم الخراساني فاحتل الموضع الذي كان يقيم عليه عبد الله معسكره ، وعور ما كان حوله من المياه (أي ردم الآبار) وألقى فيها الجيف . وعندما علم عبد الله بن علي باقدام أبي مسلم على احتلال معسكره ، قال لأصحابه من أهل الشام : « ألم أقل لكم ؟ . . . » . وقاد جيشه فنزل في موضع معسكر أبي مسلم الذي كان فيه ، فاقتتلوا أشهراً خمسة أو ستة ، وأهل الشام اكثر فرساناً وأكمل عدة ، فلم يتمكن أبو مسلم من تحقيق الانتصار بالسرعة التي كان يتوقعها ويريدها .

تحدث الناس يوماً في معسكر أبي مسلم ، فقيل : « أيُّ الناس أشد ؟ » فقال أبو مسلم : « قولوا حتى أسمع » . فقال رجل . «أهل خراسان» وقال آخر : « أهل الشام » فقال أبو مسلم :

«كل قوم في دولتهم أشد الناس» . وقامت جماعة يوماً بهجوم قوي على معسكر أبي مسلم ، وقتلوا منهم ، وانهزم آخرون ، فقال هشام بن عمرو التغلبي مخاطباً أبي مسلم : «لو حركت دابتي حتى أشرف على هذا التل ، فأصيح بالناس ، فقد انهزموا» فقال له أبو مسلم : «افعل» وعاد هشام فقال لأبي مسلم : «وأنت أيضاً فتحرك دابتك» . فقال أبو مسلم : «إن اهل الحجى لا يعطفون دوابهم على هذه الحال ـ ناد : يا أهل خراسان ! إرجعوا ، فان العاقبة لمن اتقى» ففعل هشام ما أمر به وتراجع الناس . وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال :

من كان ينوي أهله فلا رجَعْ
فَرَّ من الموت وفي الموت وقَعْ

كان أبو مسلم قد أمر بعمل عريش له ، في مكان مرتفع ، فكان يجلس عليه إذا التقى الناس ، فينظر الى القتال ، فإن رأى خللاً في الميمنة أو في الميسرة أرسل الى صاحبها : «إن في ناحيتك انتشاراً ، فاتّقِ ألا تؤتى من قبلك ، فافعل كذا . . . قدم خيلك كذا . . . أو تأخر كذا . . الى موضع كذا . . » ، فكانت رسلهم تختلف إليهم برأيه حتى ينصرف بعضهم عن بعض .

زج عبد الله بن علي ، أخيراً ، جمع جيشه ضد جيش أبي مسلم ، ودارت معركة ضارية ، ومكر أبو مسلم بجيش عبد الله ، فوضع خطة ساعدته على تدمير جيش عبد الله على التتابع ، وفي النهاية ، حمل أهل خراسان على أهل الشام ، فحطموهم ، ومزقوهم ، فكانت الهزيمة وهرب عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد . فأما عبد الصمد ، فقدم الكوفة واستأمن له (عيسى بن

موسى) فأمنه أبو جعفر ، وأما عبد الله بن علي فأتى (سليمان بن علي) بالبصرة وأقام عبد الله وقواده ومواليه عند سليمان بن علي زماناً ، فآواهم سليمان وأكرمهم ، ثم آمنهم أبو جعفر ، فلم يقتل أحداً ، وأمر بالكف عنهم .

انتهت الحرب ضد عبد الله بن علي بانتصار أبي مسلم انتصاراً حاسماً ، غير أن هذه الحرب أبرزت مجموعة من المواقف كان لها دور حاسم في مصير أبي مسلم الخراساني وفي تقرير مستقبله .

كان أبو جعفر المنصور قد كتب الى خليفته بأرمينية (الحسن بن قحطبة) وطلب اليه ان يقود جيشه ، وأن ينضم الى أبي مسلم وجيشه . وقاد الحسن جيشه ، فوصل الى الموصل وانضم الى جيش أبي مسلم ، ولكن قبل ان يتحرك أبو مسلم وجيشه للقاء عبد الله ، أرسل (الحسن بن قحطبة) أحد خاصته واسمه (مسلم بن المغيرة) الى المنصور وهو يحمل رسالة جاء فيها : « . . **إني قد ارتبت بأبي مسلم منذ قدمت عليه ، انه يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين ، فيقرؤه ، ثم يلوي شدقه ، ويرمي بالكتاب الى أبي نصر ، مساعده ، فيقرؤه ، ويضحكان استهزاء »** . ومضى ابن المغيرة ، فلما أبلغ الرسالة ، وجد أنه لم يحمل للمنصور أمراً مجهولاً ، وقيل له : « . . . نحن لأبي مسلم أشد تهمة منا لعبد الله بن علي ، إلا أنا نرجو واحدة : نعلم أن أهل خراسان لا يحبون عبد الله بن علي ، وقد قتل منهم من قتل » .

عندما انتصر أبو مسلم على (عبد الله بن علي) استولى على معسكره واحتوى ما فيه من الأموال ، فصيره في حظيرة ، وأصاب عيناً ومتاعاً وجوهراً كثيراً ، فكان منثوراً في تلك الحظيرة ،

ووكل بها وبحفظها قائداً من قواده . ولما علم أبو جعفر المنصور ، أرسل مولاه (أبا الخصيب) إلى أبي مسلم ، ليكتب له ما أصاب من الأموال ، فافترى أبو مسلم على أبي الخصيب وهمَّ بقتله ، فتوسط بعض أصحاب أبي مسلم وتحدثوا اليه ، وقالوا له : « إنما هو رسول ، فخل سبيله » . فأطلق سراحه ، ورجع أبو الخصيب الى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، وأخبره أن أبا مسلم قد هم بقتله . فما كان من المنصور إلا أن أرسل (يقطين بن موسى) وأمره ان يحصي ما في المعسكر ، وكان أبو مسلم يسميه (ديك دين) فقال له : « **يايك دين ! أمين على الدماء ، خائن في الأموال !** » وشتم أبا جعفر ، فأبلغه يقطين ذلك . فما كان من أبي جعفر الا أن أعاد يقطين إلى أبي مسلم ، ومعه رسالة جاء فيها : « **لقد وليتك مصر والشام وهي خير لك من خراسان ، فوجه الى مصر من أحببت ، وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين ، فان أحب لقاءك أتيته من قريب** » . فلما أتاه الكتاب غضب وقال : « **هو يوليني الشام ومصر ، وخراسان لي !** » . واعتزم بالمضي الى خراسان ، فكتب يقطين الى أبي جعفر بذلك .

خرج أبو مسلم الخراساني من الجزيرة ، يريد خراسان ، وقد اتخذ قراره ـ مجمعاً على الخلاف ـ . وخرج أبو جعفر المنصور من الأنبار الى المدائن ، وكتب الى أبي مسلم في المصير إليه . فكتب أبو مسلم ، وقد نزل الزاب ، وهو على الرواح إلى طريق حلوان :

« . . . إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء

بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، فإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها ، نقضتُ ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي » .

فلما وصل الكتاب الى المنصور ، كتب الى أبي مسلم : « . . . قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم ؟ وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ؟! وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمع ولا طاعة . وحمل إليك (عيسى بن موسى) رسالة أمير المؤمنين لتسكن إليها إن أصغيت اليها . وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده ، وأقربْ من طبه ـ سحره ـ من الباب الذي فتحه عليك » .

وعاد أبو مسلم ، فكتب للمنصور : « . . . **أما بعد ! فإني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترضه الله على خلقه ، وكان في محلة العلم نازلاً ، وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً ، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه ، طمعاً في قليل قد تعافاه الله الى خلقه ، فكان كالذي دُلي ـ أي أطمع ـ بغرور . وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقيل العثرة ، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عَرفكم الله من كان جهلكم ، ثم استنقذني الله بالتوبة ، فإن يعف عني فقدماً عرف به ونسب إليه ، وإن يعاقبني فيما قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد** »

ماذا تعني هذه الرسالة اكثر من اتهام لأبي العباس السفـاح ـ وأخيه أبي جعفر المنصـور ضمناً ـ بتحـريف الدين ؟ لقـد قتل أبـو مسلم الخـراسـاني أكثـر من ستمائـة ألف مسلم ، من العـرب معظمهم ، لتوطيد دعائم الحكم العباسي ، فماذا تعني هذه التوبة المبـاغتة ؟ وهـل هي توبـة حقيقية أم هي محـاولة لابـراز دور أبي مسلم ـ والخراسانيين ـ في إقامة الدولة العباسية ؟ ولكن هل يجهل المنصور هذه الحقيقـة حتى يأتيـه أبو مسلم ليـذكره بهـا أو ليعرفـه عليهـا ؟ أم هي محاولـة الحصـول على بـراءة من دمـاء المسلمين تمهيـداً لالقـاء التبعـات على الخلفـاء العبـاسيين ذاتهم من أجـل التمهيد للتحرك ضدهم بحجة مـا ارتكبوه بحق المسلمين ؟ مهمـا كـان عليه الأمـر ، فالحقيقـة الواضحـة هي أن أبا مسلم قـد قذف بتحديه في وجه المنصور من موقع القوة ، وهو إنذار بخطر مدمر ، ولم يكن المنصور يجهل القوة التي يمتلكها أبو مسلم الخراساني ، ولهذا كان لزاماً عليه معالجة الموقف بحذر شديد ، وهذا ما فعله إذ استدعى إليه (عيسى بن علي) و (عيسى بن موسى) وقال لهما ، ولمن حضره من بني هاشم : « اكتبوا إلى أبي مسلم ! » فكتبوا إليه يعظمون أمره ، ويشكرون له ما كان منه ، ويسألونه أن يتم على ما كان منه وعليـه من الطاعـة ، ويحذرونـه عاقبـة الغدر ، ويـأمرونـه بالرجوع إلى أمير المؤمنين ، وأن يلتمس رضـاه . وبعث المنصور بالكتاب مـع (أبي حميد المـرورذي) وأوصاه بقـوله : « كلم أبـا مسلم بألين ما تُكلِّم به أحداً ، ومنّه ، وأعلمه أني رافعه وصانع به ما لم يصنعه أحد ، إن هو صلح وراجع ما أحب ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لست من العباس ، وأنـا بريء من محمد ـ ﷺ ـ إن مضيت مشاقاً ولم تأتني ، إن وكلت أمرك إلى

أحـد سواي . ولم آل طلبـك وقتالـك بنفسي ، ولو خضت البحـر لخضتـه ، ولو اقتحمت النـار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أمـوت قبل ذلك . ولا تقولن له هذا الكلام حتى تأيس من رجوعه ، ولا تطمع منه في خير » .

سار (أبو حميد) في ناس من أصحابه ممن يثق بهم ، حتى قـدموا على أبي مسلم بحلوان ، فـدخـل أبـو حميـد وأبـو مـالـك وغيرهما ، فدفع إليه الكتاب ، وقال له : « إن الناس يبلغونك عن أميـر المؤمنين ما لم يقله ، وخـلاف ما عليـه رأيـه فيـك ، حسـداً وبغياً ، يريدون إزالة النعمة وتغييرها ، فلا تفسد ما كان منك . يـا أبا مسلم ! إنك لم تزل أمين آل محمد ، يعرفك بـذلك النـاس ، وماذخرالله لك من الأجر عنـده في ذلك أعـظم مما أنت فيـه من دنياك ، فلا تحبط أجرك ، ولا يستهوينك الشيطان » . فقال له أبـو مسلم : « متى كنت تكلمني بهذا الكلام ؟ » فـأجابـه أبو حميـد : « .. **إنـك دعوتنـا إلى هذا وإلى طـاعـة أهـل بيت النبي ﷺ بني العباس ، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك ، فدعوتنا من أرَضين متفرقة وأسبـاب مختلفة ، فجمعنـا الله على طاعتهم ، وألف بين قلوبنـا بمحبتهم ، وأعزنا بنصرنا لهم ، ولـم نلق منهم رجلاً إلا بما قذف الله في قلوبنا ، حتى أتيناهم في بـلادهم ببصائـر نافـذة ، وطاعـة خالصة ، أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا ، وتفرق كلمتنا ، وأنت الذي قلت لنا : من خـالفكم فاقتلوه ، وإن خالفتكم فاقتلوني** » .

أقبل أبو مسلم الخراساني على قائد شرطه ـ أبي نصر مالك ابن الهيثم الخزاعي ـ وقال لـه : « يا مـالك ! أتسمـع ما يقـول لي

هذا ؟ ما هذا بكلامه يا مالك ! » فقال أبو نصر : « لا تسمع منه ، ولا يهولنك هذا منه ، فلعمري لقد صدقتَ ما هذا كلامه ، ولمَا بعد هذا أشد منه ، فامضِ لأمرك ولا ترجع . فوالله لئن أتيته ليقتلنك . ولقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك أبداً » فقال أبو مسلم لأفراد وفد المنصور : « قوموا » فنهضوا . وأرسل أبو مسلم الى أمين سره ـ نيزك ـ وقال له مستشيراً : «يا نيزك ! إني والله ما رأيت طويلاً أعقل منك ، فما ترى ؟ ! فقد جاءت هذه الكتب ، وقد قال القوم ما قالوا ! » . وأجاب نيزك . « لا أرى أن تأتيه ، وأرى أن تأتي الري فتقيم بها ، فيصير ما بين خراسان والري لك ، وهم جندك ما يخالفك أحد ، فإن استقام لك استقمت له ، وإن أبى كنت في جندك ، وكانت خراسان من ورائك ، ورأيت رأيك » .

وأخذ أبو مسلم بهذا الرأي الذي وافق هواه ، ودعا إليه أبا حميد ، وقال له : « إرجع إلى صاحبك ـ يعني المنصور ـ فليس من رأيي أن آتيه » فقال له أبو حميد : « هل عزمت على خلافه والخروج على طاعته » فأجاب أبو مسلم : « نعم » . فقال له أبو حميد : « لا تفعل » . فقال أبو مسلم : « ما أريد أن القاه » . فلما آيسه من الرجوع ، قال له ما أمره به أبو جعفر ، فوجم طويلاً ، ثم قال : « قم » ولكن ما قاله المنصور أرهبه وأرعبه .

كان أبو جعفر المنصور ، قد كتب إلى أبي داود ـ وهو خليفة أبي مسلم بخراسان ـ وذلك حين شعر بخلاف أبي مسلم ، وتمرده على إرادته : « إن لك إمرة خراسان ما بقيتُ » . فكتب أبو داود إلى أبي مسلم : « إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ ، فلا تخالفن إمامك ، ولا ترجعن إلا بإذنه » . فوصله كتابه وهو على تلك الحال ، فزاده رعباً وهماً .

وأرسل أبو مسلم إلى أبي حميد ، وأبي مالك ، فقال لهما : « إني قد كنت معتزماً على المضي إلى خراسان ، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين ، فيأتيني برأيه ، فإنه ممن أثق به » . فوجهه ، فلما قدم تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب ، وقال له أبو جعفر : « اصرفه عن وجهه ، ولك ولاية خراسان ، وأجازه » . ورجع أبو اسحاق إلى أبي مسلم ، فقال له : « ما أنكرتُ شيئاً ، رأيتهم معظمين لحقك ، يرون لك ما يرون لأنفسهم » . وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين ، فيعتذر إليه مما كان منه ، فأجمع على ذلك ، فقال له نيزك : « هل قررت الرجوع ؟ » فقال نعم ، وتمثل :

ما للرجال مع القضاءِ مَحَالةٌ
ذهب القضاء بحيلة الأقوام

وعاد نيزك فقال لأبي مسلم : « أما إذا عزمت على هذا ، فخار الله لك ، واحفظ عني واحدة ، إذا دخلت على المنصور فاقتله ، ثم بايع لمن شئت ، فإن الناس لا يخالفونك » .

وكتب أبو مسلم إلى أبي جعفر المنصور يخبره أنه منصرِف إليه .

❊ ❊ ❊

هكذا اتخذ أبو مسلم الخراساني قراره بالتوجه للقاء أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور. وفي الواقع فإن العرض السابق يظهر أن المنصور قد نجح في إحاطة أبي مسلم بحلقة محكمة من الحصار ، وبذلك حرمه من حرية العمل ، ووضعه أمام خيار لا

خيار له في اللجوء إلى غيره . ولقد كان العفو من شيمة المنصور ، ولقد سبق له أن أصدر عفوه عن (عبد الله بن علي) وأصحابه ، رغم أنه حمل السلاح ، وطلب الخلافة لنفسه ، فكان منافساً خطيراً وخصماً عنيداً . وبرغم ذلك كله ، لم يعمل على استباحة دمه وقتله بعد أن قضى على ثورته ، فهل سينال أبو مسلم نصيبه من عفو المنصور ؟

إن ما سبق عرضه من أسباب الخلاف بين أبي مسلم وأبي جعفر تشكل مؤشرات خطرة ، ونذر مدمرة ، غير أنها تفسح المجال في الوقت ذاته لتسويات سلمية ، أو مهادنات مرحلية ، فهل سيختار المنصور طريق التسوية والمهادنة ؟

إن الاجابة على هذا التساؤل يتطلب في الحقيقة العودة إلى بعض ملامح سيرة أبي مسلم الخراساني ، الذي كان له دور أساسي وحاسم في مسيرة الدعوة العباسية ، حتى أصبح معروفاً باسم (وزير آل محمد) ؛ إذ أن هذه الملامح هي التي تشكل العوامل الاساسية في تقرير مصير النزاع الذي تفجر بين الرجلين : أبي جعفر وأبي مسلم . فالنزاع قد يجد حلاً له فيما إذا كان ناشباً عن اختلاف في وجهات النظر تجاه بعض القضايا ، غير أن الحل قد يجابه طريقاً مسدوداً فيما إذا كان هناك خلاف اساسي وجوهري تجاه سياسة الدولة وادارتها .

ولقد ظهر من خلال العرض السابق أن الخلاف قد أخذ شكل صراع شخصي ، فهل كان ذلك الصراع شخصي حقاً ؟ أم أنه أخذ شكل الصراع الشخصي تعبيراً عن أسباب اكثر عمقاً وعوامل اكثر خطورة ؟

٤ ـ القضاء على أبي مسلم الخراساني

من هو أبو مسلم الخراساني ؟ وكيف أمكن له احتلال موقع الصدارة من الدعوة العباسية ، مع وفرة من تصدوا لحمل راية هذه الدعوة من النقباء والدعاة ، وفيهم من هو اكثر قوة وأعز مكانة من أبي مسلم ؟

توجهت جماعة من شيعة بني العباس من خراسان إلى الكوفة ، وهم يريدون الحج إلى مكة سنة أربع وعشرين ومائة ، فلما دخلوا الكوفة أتوا عاصم بن يونس العجلي ، وهو في الحبس ، قد اتهم بالدعاء إلى ولد العباس ، ومعه عيسى وإدريس ابنا معقل العجلي ومعهما أبو مسلم يخدمهما ، فرأوا فيه العلامات ، فقالوا : من هذا ؟ قالوا : غلام معنا من السَّراجين ، وكان أبو مسلم يبكي إذا ما سمع عيسى وإدريس وهما يتكلمان بدعوة بني العباس ، فلما رأوا ذلك منه ، دعوه إلى ما هم عليه ، فأجاب وقبل ، واشترى بكير بن ماهان أبا مسلم من عيسى بن معقل العجلي .

مضت خمس سنوات فقط على هذه البداية عندما أصبح أبو مسلم كبير دعاة بني العباس في خراسان . ففي سنة تسع وعشرين

ومائة ، كتب (سليمان بن كثير) إلى أبي سلمة الخلال يسـأله أن يكتب إلى (ابـراهيم بن محمد بن علي بن عبـد الله بن العباس) حتى يوجه رجلاً من أهل بيتـه ، فوجـه الامام ابـراهيم (أبا مسلم الخراساني). فبث أبو مسلم دعاته في الناس ، وظهر أمره ، وقال الناس : « قدم رجل من بني هاشم » فأتوه من كل وجه ، فوافاه في يوم واحد أهـل ستين قريـة . وبعث الإمام ابـراهيم إلى أبي مسلم اللواء الذي يدعى (الظل) والراية التي تدعى (السحاب) . فعقد أبو مسلم اللواء على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً ، والراية على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً ، ولبس السواد هو والشيعة ، وأوقدوا النيران ليلتهم أجمـع ، ـ وكانت العـلامة بين الشيعـة ـ فتجمعـوا لـه حين أصبحوا . وتأويل هذين الاسمين (الظل والسحاب) أن السحاب يطبق الأرض ، وكذلك دعوة بني العباس . وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الـظل أبداً ، وكـذلك لا تخلو من خليفـة عباسي أبـد الدهر . . .

جـاء عيد الفـطر بعد يـومين من إشهار الـدعوة العبـاسية في خـراسـان ، فـأمـر أبـو مسلم (سليمـان بن كثيـر) أن يصلي بـه وبالشيعة ، ونصب له منبراً في المعسكر ، وأمره أن يبـدأ بالصـلاة قبل الخطبـة بغير أذان ولا إقـامة ـ وكـانت بنو أميـة تبدأ بـالخطبـة والأذان ، ثم الصلاة بالإقامة على صلاة يوم الجمعـة ، فيخطبـون على المنابر جلوساً في الجمعة والأعياد ـ وأمر أبـو مسلم (سليمان ابن كثير) أن يكبر الركعة الأولى ست تكبيرات تباعاً ، ثم يقرأ ويركع بالسابعة ، ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعـاً ، ثم يقرأ ويركع بالسادسة ، ويفتتح الخـطبة بـالتكبير ، ويختمهـا بالقـرآن ـ وكانت بنو أمية تكبر في الركعة الأولى أربـع تكبيرات يـوم العيد ،

وفي الثانية ثلاث تكبيرات ـ . فلما قضى سليمان بن كثير الصلاة والخطبة ، انصرف أبو مسلم والشيعة إلى طعام قد أعده لهم أبو مسلم الخراساني . . .

أقام أبو مسلم في خباء (في قرية يقال لها بالين) ليس له حرس ولا حجاب ، وعظم أمره عند الناس ، وانطلق فتية من أهل مرو ، نساك كانوا يطلبون الفقه ، فأتوا أبا مسلم في معسكره ، فسألوه عن نسبه ، فقال لهم : خبري خير لكم من نسبي . وسألوه عن أشياء من الفقه ، فقال لهم : أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا ، ونحن في شغل ، ونحن إلى عونكم أحوجُ منا إلى مسألتكم ، فأعفونا . قالوا : والله ما نعرف لك نسباً ، ولا نظنك تبقى الا قليلاً حتى تقتل ، وما بينك وبين ذلك إلا أن يتفرغ أحد هذين الرجلين من زعماء العرب وهما شيبان بن عبد العزيز اليشكري ـ أبي الدلغاء ـ أو عامل الأمويين على خراسان ـ نصر بن سيار ـ . فقال أبو مسلم : « بل أنا أقتلهما إن شاء الله » .

كان نصر بن سيار عامل الامويين على خراسان يتابع الدعوة العباسية ، ويقدر خطورتها ، فحاول جمع شمل القبائل العربية المتناحرة (ربيعة واليمن) لقتال أبي مسلم وشيعته ، غير أن أبا مسلم استطاع بدهائه حيناً ، وبوعيده في أحيان أخرى ، أن يحرم العرب من فرصة اجتماعهم ، وخاض الحرب ضدهم متفرقين فانتصر عليهم ، ودخل مرو ، وهرب نصر بن سيار ، واطمأن أبو مسلم ، « فأمر الشيعة أن يبتنوا المساكن ، ويستعدوا للشتاء ، فقد أعفاهم الله من اجتماع كلمة العرب وصيرهم بنا إلى افتراق الكلمة . . . » .

كان أبو مسلم يعرف أن قوة العرب في وحدة كلمتهم ،

فافتعل على لسان الامام ابراهيم الرسالة الشهيرة التي جاء فيها :
« . . . إنك رجل منا أهل البيت ، احفظ وصيتي ، انظر هذا الحي من اليمن ، فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر ، فانهم العدو القريب الدار ، واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله . . . »[1] واتخذ شعاراً له : « اجعل سوطك السيف وسجنك القبر » .

هكذا ، مضى أبو مسلم في دعوته ، رابط الجأش ، صادق التصميم والعزيمة ، يشن حرب إبادة ضد المسلمين عامة وضد العرب المسلمين خاصة ، حتى سيطر على خراسان وانطلق منها إلى العراق ، فأمكن القضاء على دولة بني أمية .

عندما انتصرت الدعوة العباسية ، وبايع الناس لأبي العباس السفاح ، تلكأ أبو سلمة الخلال باعلان البيعة في الكوفة ـ وكان أبو سلمة يحمل صفة وزير آل محمد ـ وخاف أبو العباس أن يكون ما فعله أبو سلمة الخلال بالاتفاق مع أبي مسلم الخراساني ، فأرسل أخاه أبا جعفر المنصور لاستطلاع جلية الأمر ، فكتب أبو مسلم إلى أبي العباس رسالة جاء فيها : « إن كان أمير المؤمنين قد اطلع على غش أبي سلمة فليقتله » . ولكن أبا العباس خاف استثارة الخراسانيين ، فكلف أبا مسلم بقتله ، فأرسل أبو مسلم من قتله غيلة ، وأشاع أن الخوارج قد قتلوه . وشك أبو مسلم بولاء

---

(١) انظر الكامل في التاريخ (ذكر شيعة بني العباس) أحداث سنة ثمانٍ وعشرين ومائة .
وكذلك تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ثلاثين ومائة .

(سليمـان ابن كثير) وكـان بـدوره من كبـار دعـاة بني العبـاس ، فـاستـدعـاه ، وقـال لـه : « أتحفظ قـول الامـام لي : من اتهمتـه فـاقتله ؟ » فقال ابن كثيـر : نعم ، فقال لـه أبو مسلم : « إني قـد اتهمتـك ؟! » فقال لـه ابن كثير : « انشـدك الله ! » فرد عليـه أبو مسلم : « لا تنـاشـدني الله فـأنت منـطو على غش الامـام » وأمـر بضرب عنقه .

ورجع أبو جعفر المنصور من جولته في خراسان وقد تشكلت لـديه القنـاعة التـامـة بحقيقتين ثـابتتين، اولاهمـا : أن أبـا مسلم الخراساني قد فرض هيمنتـه الكاملة على خـراسان وبـالتالي على الدولة العباسية ، بحيث أنه كان يتابع بدقة أي تحرك للخليفة ـ أبي العباس السفاح ـ وأخيه أبي جعفر المنصور ، ولكافة القادة والولاة . والثانية : هي أن أبا مسلم الخراسـاني كان قـد اتخذ ممـا زعمه ـ وصية الامام ـ حجة للقضاء على أي خصم من خصومه ، أو منافس محتمل من منافسيه ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخاطب المنصور أخاه أبا العباس فور وصولـه من خراسـان بقولـه : « **لست خليفة ، ولا أمـرك بشيء إن تركت أبـا مسلم ولـم تقتله** » فسألـه أبو العبـاس : « وكيف ؟ » فقال له المنصور : « والله ما يصنع إلا ما أراد » فقال له أبو العباس : « اكتمها ! » .

كان أبو العباس السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم الخراساني ، وكان أبو الجهم عيناً لأبي مسلم على السفاح ، ولم يكن أبو العباس يجهل شيئاً من أمر أبي مسلم ، غير أنه كان حريصاً على مهادنته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وقد ظهر ذلك واضحاً عندما كلف أخاه ـ أبا جعفر المنصور ـ بالتوجه للحج حتى لا يترك الفرصة أمام أبي مسلم لينفرد بقيادة الحج والصـلاة بالنـاس ، كما ظهر ذلك واضحـاً في احاديث أبي العباس مـع أخيه أبي جعفـر ،

ومنها ما قاله المنصور أبو جعفر يوماً لأخيه : « **يا أمير المؤمنين ! أطعني واقتل أبا مسلم ، فوالله إن في رأسه لغدرة** » فأجاب أبو العباس : « يا أخي ! قد عرفت بلاءه ، وما كان منه » . فقال أبو جعفر : « يا أمير المؤمنين ! إنما كان بدولتنا ! والله لو بعثت سنَّوراً لقام مقامه ، وبلغ ما بلغ في هذه الدولة » فرد عليه أبو العباس : « فكيف نقتله ؟! » فأجاب أبو جعفر : « إذا دخل عليك وحادثته ، وأقبل عليك ، دخلت فتغفلته فضربته من خلفه ضربة أتيت بها على نفسه » . فقال أبو العباس : « فكيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم ؟! » وأجاب المنصور : « يؤول ذلك كله إلى ما تريد ، ولو علموا أنه قد قتل تفرقوا وذلوا » . وقال أبو العباس : « عزمت عليك إلا كففت عن هذا ! » فرد المنصور : « أخاف والله إن لم تتغده اليوم يتعاشك غداً » . فقال له أبو العباس : « فدونكه ، أنت أعلم » ووضع المنصور خطته لقتل أبي مسلم ، ولكن أبا العباس عاد فمنعه من تنفيذ الخطة .

وإذن ، فان ما قام به أبو مسلم خلال فترة الحج ، لم يكن الا تعبيراً عن حقيقة ثابتة وهي معرفة أبي مسلم لنوايا أبي جعفر المنصور تجاهه . كما أن تصرفات أبي مسلم ، لم تكن إلا تأكيداً لظنون المنصور ، فلما آلت الخلافة إليه ، وجد أنه من المحال عليه الاضطلاع بأعباء الخلافة مع وجود الخراساني . وقد ظهر واضحاً من خلال الرسائل المتبادلة بين المنصور والخراساني أن الخلاف لم يكن مجرد نزوات طارئة . أو تناقضات عابرة ، وإنما هو اختلاف اساسي وجوهري . فقد كتب المنصور الى الخراساني رسالة جاء فيها :

« . . . أما بعد ! إنه يرين على القلوب ويطبع عليها

المعاصي ، فَعِ أيها الطائش ، وأفق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم ، فانك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة ، في برزخ دنيا قد غرت من كان قبلك ، وسم بها سوالف القرون . . . وإن الله لا يعجزه من هرب ، ولا يفوته من طلب ، فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي ، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك ، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله ما لم تكن تحتسب ، مهلاً مهلاً ، احذر البغي أبا مسلم ، فانه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم ، واحذر أن تكون سنة في الذين قد خلوا من قبلك ، ومثلة لمن يأتي بعدك ، فقد قامت الحجة واعذرت إليك وإلى أهل طاعتي فيك . . . » .

وأجاب أبو مسلم : « أما بعد ! فقد قرأت كتابك ، فرأيتك فيه للصواب مجانباً ، وعن الحق حائداً ، إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها ، وكتبت إلي فيه آيات منزلة من الله للكافرين ، وانني والله ما انسلخت من آيات الله ، ولكنني ، يا عبد الله بن محمد ، كنت رجلاً متأولاً فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة ، فأتممت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما ، فكنت لهما شيعة متديناً ، أحسبني هادياً مهتدياً ، وأخطأت في التأويل وقدماً أخطأ المتأولون . . . وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالاً ، فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ، ولا أقيل العثرة ، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم ، وتوطئة لسلطانكم ، حتى عرفكم الله من كان جهلكم ، ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم واستنقذني بالتوبة ، فانه يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفوراً ، وإن يعاقبني فبذنوبي ، وما

ربك بظلام للعبيد » .

فكتب إليه المنصور : « **أما بعد ! أيها المجرم العاصي ، فإن أخي كان إمام هدى ، يدعو إلى الله على بينة من ربه ، فأوضح لك السبيل ، وحملك على المنهج السديد ، فلو بأخي اقتديت لما كنت عن الحق حائداً ، وعن الشيطان وأوامره صادراً ، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركاً ، ولأغواهما راكباً ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطش بطش الجبابرة ، وتحكم بالجور حكم المفسدين ، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين ، ثم من خبري أيها الفاسق أني قد وليت موسى بن كعب خراسان ، وأمرته أن يقيم بنيسابور ، فإن أردت خراسان لقيك بمن معه من قوادي وشيعتي ، وأنا موجه للقائك أقرانك ، فاجمع كيدك وأمرك غير مسدد ولا موفق ، وحسب امير المؤمنين ومن تبعه الله ، ونعم الوكيل** »[1] .

من المحتمل جداً أن تتضمن النصوص السابقة بعضاً من المبالغة أو بعضاً من تحريف الكلم ، وذلك على الرغم مما اشتهرت به مصادر التارخ العربي ، الاسلامي من الدقة في التدوين ، والأمانة في النقل ، والصدق في البحث والاستقصاء . ولكن ، وبالرغم من احتمالات المبالغة والتحريف ، إلا أن مضمون الرسائل التي سبق عرضها إنما تؤكد حقيقة الخلاف وطبيعته والتي تتجاوز حدود المهاترات والادانات .

مهما كان عليه الموقف ، فقد وصلت الأمور نهايتها

---

(١) عن البداية والنهاية ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٦٧ (٤ / ٣٥١ ـ ٣٥٢ ـ الحاشية) .

الحتمية ، وقرر أبو مسلم الانصياع لارادة المنصور ، فسار إلى المدائن ، وخلف في ثِقلِهِ وزيره وأمين سره (أبا نصر مالك بن الهيثم) وقال له : « أقم حتى يأتيك كتابي » . فقال له أبو نصر : « إجعل بيني وبينك آية ـ علامة ـ أعرف بها كتابك » فأجابه أبو مسلم : « إن أتاك كتابي مختوماً بنصف خاتم ، فأنا كتبته ، وإن أتاك بالخاتم كله ، فلم أكتبه ولم أختمه » . فلما اقترب أبو مسلم من المدائن ، تلقاه رجل من قواده ، فسلم عليه ، وقال له : « أطعني وارجع ، فإنه إن عاينك قتلك » فأجاب أبو مسلم : « قَد قربت من القوم ، فأكره أن أرجع » فقدم المدائن في ثلاثة آلاف ، وخلف الناس بحلوان .

وصل الموقف إلى مرحلة الحسم ، ولم تكن قضية الحسم من القضايا السهلة ، فقد استطاع أبو مسلم إشاعة جو الرعب وفرضه حتى على حاشية المنصور ، والمقربين إليه . وقد يكون من المناسب متابعة تطورات الموقف في يومه الأخير على لسان وزير المنصور (أبي أيوب) الذي قال : دخلت على أبي جعفر المنصور وهو في خباء شعر بالرومية ، جالساً على مصلى بعد العصر ، وبين يديه كتاب أبي مسلم ، فرمى به إليَّ ، فقرأته ، ثم قال : والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه » فقلت في نفسي : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! طلبت الكتابة ـ الوزارة ـ حتى إذا بلغتُ غايتها فصرت كاتباً للخليفة ، وقع هذا بين الناس ! والله ما أرى إنا إن قتل يرضى أصحابه بقتله . ولا يدعون هذا ـ يعني الخليفة ـ حياً ، ولا أحداً ممن هو بسبيل منه » ، وامتنع مني النوم ، ثم قلت : « لعل الرجل يقدم وهو آمن ، فإن كان آمناً فعسى أن ينال ما يريد ، وإن قدم وهو حذر لم يقدر عليه إلا في شر ، فلو التمست

حيلة ! » فأرسلت إلى سلمة بن سعيد بن جابر ، فقلت له : « هل عندك شكر ؟ » فقال : « نعم » . فقلت : « إن وليتك ولاية تصيب منها مثل ما يصيب صاحب العراق ، تدخل معك حاتم بن أبي سليمان ـ أخي ـ ؟ » فقال سلمة : « نعم » فقلت ـ وأردت أن يطمع ولا ينكر ـ : « وتجعل له النصف ؟» قال : « نعم » قلت : « إن ـ ناحية ـ كسكر قد كالت عام أول كذا وكذا ، ومنها العام أضعاف ما غلت عام أول ، فإن دفعتها إليك بقَبالتها عاماً أول ، أو بالأمانة ، أصبت من المال ما تضيق به ذرعاً » . فقال سلمة : « فكيف لي بهذا المال ؟ » قلت له : « تأتي أبا مسلم ، فتلقاه وتكلمه غداً ، وتسأله أن يجعل هذا فيما يرفعه من حوائجه أن تتولاها أنت بما كانت في العام الأول ، فإن أمير المؤمنين ـ المنصور ـ يريد أن يولي أبا مسلم إذا قدم ما وراء بابه ، ويستريح ويريح نفسه » فقال سلمة : « فكيف لي أن يأذن أمير المؤمنين في لقائه ؟ » قلت : « أنا أستأذن لك » . ودخلت إلى أبي جعفر ، فحدثته الحديث كله . قال : « فادع سلمة » . فدعوته فقال : « أذنت لك ، فأقرأه السلام ، وأعلمه بشوقنا إليه » فخرج سلمة ، فلقي أبا مسلم وقال له : « إن أمير المؤمنين أحسن الناس فيك رأياً » فطابت نفسه حتى قدم إلى المنصور ، وكان قبل ذلك كئيباً .

اقترب أبو مسلم من المدائن فأصدر أمير المؤمنين المنصور ، تعليماته وأوامره بخروج الناس لاستقبال أبي مسلم الخراساني ، وكان بنو هاشم والقادة في طليعة المستقبلين ، وعاد (أبو أيوب) فدخل على المنصور وسأله : « هذا الرجل ـ يعني أبو مسلم ـ يدخل العشية ، فما تريد أن تصنع ؟ ! » وأجاب المنصور : « أريد أن أقتله حين أنظر إليه » فقال له أبو أيوب : « أنشدك الله ، إنه يدخل معه

الناس ، وقد علموا ما صنع ، فإن دخل عليك ولم يخرج لم آمن البلاء . ولكن إذا دخل عليك فاذن له أن ينصرف ، فإذا غدا عليك رأيت رأيك » . وقال أبو أيوب : « ما أردت بذلك إلا دفع المنصور بها ، وما ذاك إلا من خوفي عليه وعلينا جميعاً من أصحاب أبي مسلم » .

وصل أبو مسلم إلى المدائن ، ودخل على المنصور من عشيته وسلم ، ووقف قائماً بين يديه ، فأحسن المنصور استقباله ، ثم قال له : « انصرف يا عبد الرحمن ، فأرح نفسك ، وادخل الحمام ، فإن للسفر قشفاً ، ثم اغدُ عليَّ » . فانصرف أبو مسلم ، وانصرف الناس .

ما لبث المنصور حتى شعر بالضيق فور خروج أبي مسلم ، فالتفت إلى أبي أيوب ، وقال له : « متى أقدر على مثل هذه الحال منه التي رأيته قائماً على رجليه ، ولا أدري ما يحدث في ليلتي» وانصرف أبو أيوب ، حتى إذا ما كان فجر الغد ، جاء مبكراً ، وما إن رآه المنصور حتى قال له : « يا ابن . . . لا مرحباً بك ! أنت منعتني منه أمس ، والله ما غمضتُ الليلة ثم شتمه حتى خاف أبو أيوب من أن يأمر المنصور بقتله . ثم قال له : « ادع لي عثمان بن نهيك ـ قائد الشرطة ـ » فلما دخل عليه قال له المنصور: «يا عثمان !كيف بلاء أمير المؤمنين عندك ؟ » فأجاب عثمان : « يا أمير المؤمنين ! إنما أنا عبدك ! والله لو أمرتني أن أتكىء على سيفي حتى يخرج من ظهري لفعلت ! » فقال له المنصور : « كيف أنت إن أمرتك بقتل أبي مسلم ؟» فوجم عثمان فترة لا يتكلم . فقال له أبو أيوب : « ما لك لا تتكلم ؟ » فأجاب عثمان بصوت ضعيف : « أقتله » فقال له المنصور : « انطلق فجيء بأربعة من وجوه الحرس ، جُلْد »

فمضى ، فلما كان عند الرواق ، عاد المنصور فناداه : « يا عثمان ! يا عثمان ! إرجع » فرجع ، فقال له المنصور : « اجلس ! وأرسل إليَّ من تثق به من الحرس، فأحضر منهم أربعة». فقال عثمان لوصيف له : « انطلق ، فادعُ شبيب بن واج ، وادعُ أبا حنيفة ، ورجلين آخرين » فدخلوا . فقال لهم أمير المؤمنين نحواً مما قال لعثمان ، فقالوا : « نقتله » فقال لهم : « قفوا خلف الرواق فإذا صفقت فاخرجوا واقتلوه » .

جاء أبو مسلم مبكراً من صباح اليوم التالي ، فلما أراد الدخول على المنصور ، اعترضه حاجب المنصور . وقال له : « أمير المؤمنين مشغولٌ ، فاصبر ساعة حتى تدخل خالياً » فتوجه أبو مسلم إلى دار عيسى بن موسى (وكان أبو مسلم يحب عيسى) فدعا له بالغداء . ثم أرسل المنصور حاجبه ـ أباالخصيب ـ وقال له : « انطلق إلى أبي مسلم ، ولا يعلم أحد . فقل له : إن أردت أمير المؤمنين خالياً ، فالعجل » . فقال له عيسى : « لا تعجل بالدخول حتى أدخل معك » ومضى عيسى ليتوضأ ، وتمهل ، فقال لأبي مسلم : « تقدم وأنت في ذمتي » . ومضى أبو مسلم ، حتى إذا ما كان بباب المنصور ، قال له البواب : « يعطيني الأمير سيفه » فقال له أبو مسلم وقد أعطاه سيفه : « ما كان يصنع بي هذا ! » . ودخل أبو مسلم ، فشكا ذلك إلى أبي جعفر الذي أجابه : « ومن فعل بك هذا قبحه الله ! » ثم قال له : « أخبرني عن نَصْلَين ـ سيفين ـ أصبتهما في متاع عبد الله بن علي » فأجاب أبو مسلم : « هذا أحدهما الذي علي » فقال له أبو جعفر : « أرنيه » فانتضاه أبو مسلم ، وناوله ، فهزه أبو جعفر ، ثم وضعه تحت فراشه ، وأقبل عليه يعاتبه ، فقال له : « أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهاه عن الموات ، أردت أن

تعلمنا الدين ؟ ! » فأجاب أبو مسلم : « ظننت أخذه لا يحل ، فكتب إلي ، فلما أتاني كتابه ، علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم » . وعاد المنصور فقال : « فأخبرني عن تقدمك إياي في الطريق ـ إلى الحج ـ ؟ » فأجاب أبو مسلم : « كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمتك التماس الرفق » فقال له المنصور : « فقولك حين أتاك الخبر بموت أبي العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلي : نقدم فنرى من رأينا . ومضيتَ ، فلا أنت أقمت حتى ألحقك ، ولا أنت رجعت إليَّ ! » فأجاب أبو مسلم : « منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس ، وقلت : نقدم الكوفة فليس عليه مني خلاف » ثم قال له المنصور : « ألست الكاتب إليَّ تبدأ بنفسك ، والكاتب إلي تخطب عمتي ـ آمنة بنت علي ـ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ؟ فأجاب أبو مسلم : « خفت على ـ آمنة بنت علي ـ بعد هزيمة عبد الله بن علي ، من أن تضيع ، فحملتها في قبة ، ووكلت بها من يحفظها » فقال المنصور : « فما دعاك إلى قتل ـ سليمان بن كثير ـ مع أثره في دعوتنا ، وهو أحد نقبائنا قبل أن ندخلك في شيء من هذا الأمر ؟ » وأجاب أبو مسلم « أراد الخلاف ، وعصاني ، فقتلته » . وقال له المنصور : « والمال الذي جمعته بخراسان ؟ » فأجاب أبو مسلم : « أنفقته وأعطيته الجند تقوية لهم واستصلاحاً » . فقال له المنصور : « فرجوعك إلى خراسان مراغماً ؟!» وأجاب أبو مسلم : «خفت أن يكون قد دخلك مني شيء ، فقلت : آتي خراسان ، فأكتب إليك بعذري ، وإلى ذلك ما قد ذهب ما في نفسك علي » . فقال له المنصور : « تالله ما رأيت كاليوم قط ، والله ما زدتني إلا غضباً » . ويظهر أن صدر أبي مسلم قد ضاق فانفجر قائلاً : « دع هذا ، فما أصبحت أخاف أحداً

إلا الله ، وليس يقال لي هذا بعد بلائي ، وما كان مني » . فأجابه المنصور : « **يابن الخبيثة ! إنما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً ! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً قتلني الله إن لم أقتلك** » وصفق المنصور ؛ فخرج عثمان بن نهيك ، وضرب أبا مسلم ضربة خفيفة بالسيف ، فلم يزد على أن قطع حمائل سيفه ، فصاح أبو مسلم مستغيثاً بالمنصور : « **يا أمير المؤمنين ! استبقني لعدوك** » فرد عليه المنصور : « **لا أبقاني الله إذاً ، وأي عدو لي أعدى منك** » . ودخل شبيب بن واج المروروذي وأبو حنيفة حرب ابن قيس ومعهما اثنين من الحرس أيضاً ، فضربوا أبا مسلم ، فسقط ، وقال وهم يضربونه : « **العفو ، يا أمير المؤمنين** » فأجابه المنصور : « **يابن اللخناء ، العفو والسيوف قد اعتورتك** » . وقُتِلَ أبو مسلم الخراساني .

نظر المنصور إلى أبي مسلم ، وقد قضى نحبه ، وقال :

زعمتَ أنَّ الدَّيْنَ لَا يُقْتَضَىٰ　　فاستَوْف بالكَيْل أبا مُجْرم
سُقيتَ كأساً كنت تسقي بها　　أَمَرَّ في الحلق من العلقم

ودخل جعفر بن حنظلة على المنصور ، فسأله المنصور : « ما تقول في أبي مسلم ؟ » . فأجابه ابن حنظلة : « يا أمير المؤمنين ! إن كنت أخذت شعرة من رأسه ، فاقتل ، ثم اقتل ، ثم اقتل » فقال له المنصور : « وفقك الله ! » ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبي مسلم مقتولاً . فقال : « يا أمير المؤمنين ! عُدَّ من هذا اليوم لخلافتك ! » .

ودخل (إسماعيل بن علي) على أمير المؤمنين المنصور ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ! إني رأيت في ليلتي هذه كأنك ذبحت

كبشاً ، وأني توطأته برجلي » فرد عليه المنصور : « نامت عينك يا أبا الحسن ، قم فصدق رؤياك ، قد قتل الله الفاسق » فقام اسماعيل إلى الموضع الذي فيه أبو مسلم ، فتوطأه .

واستدعى المنصور إليه صاحب حرس أبي مسلم - أبا إسحاق - فلما دخل عليه ولم ير أبا مسلم ، قال له أبو جعفر : « أنت المتابع - المؤيد - لعدو الله أبي مسلم على ما كان أجمع - قرر - ؟ » فكف أبو إسحاق ، وجعل يلتفت يميناً وشمالاً تخوفاً من أبي مسلم . فقال له المنصور : « تكلم بما أردت ، فقد قتل الله الفاسق » وأمر بإخراجه إليه مقطعاً . فلما رآه أبو إسحاق خر ساجداً ، فأطال السجود ، فقال له المنصور : « ارفع رأسك وتكلم » فرفع رأسه وهو يقول : « **الحمد لله الذي آمنني بك اليوم ! والله ما أمنته يوماً واحداً منذ صحبته ، وما جئته يوماً قط إلا وقد أوصيت وتكفنت وتحنطت** » ، ثم رفع ثيابه الظاهرة فإذا تحتها ثياب كتان جدد ، وقد تحنط . فلما رأى أبو جعفر حاله ، رحمه ، وقال له : « استقبل طاعة خليفتك ، واحمد الله الذي أراحك من الفاسق » . ثم قال له أيضاً : « فرق عني هذه الجماعة ، وأقسم بالله لئن قطعوا طنباً من أطنابي لأضربن عنقك ، ثم لاجاهدنهم » فخرج إليهم أبو إسحاق ، وفرقهم .

ودخل (عيسى بن موسى) بعدما قتل أبو مسلم ، فقال للمنصور : « يا أمير المؤمنين! أين أبو مسلم ؟ » فرد عليه المنصور : « قد كان ها هنا آنفاً » . فقال عيسى : « يا أمير المؤمنين ! قد عرفت طاعته ونصيحته ، وما كان عليه رأي الإمام ابراهيم فيه » فرد عليه المنصور : « . . . والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه ، ها

هو ذاك في البساط » فقال عيسى : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ! ﴾ فقال له المنصور : « **خلع الله قلبك ! وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم ؟ !** ».

ودخل أبو جهم على أمير المؤمنين المنصور ، فلما عرف قتل أبي مسلم ، قال للمنصور : « يا أمير المؤمنين! ألا أرد الناس ؟ » قال : بلى ، فقال أبو جهم : « فمر بمتاع يحول إلى رواق آخر من أرواقك هذه » . فأمر بفرش ، فأخرجت ، كأنه يريد أن يهيىء له رواقاً آخر ، وخرج أبو الجهم ، فقال للناس : « انصرفوا ! فإن الأمير يريد أن يقيل عند أمير المؤمنين » ، ورأوا المتاع ينقل ، فظنوه صادقاً ، فانصرفوا ، ثم راحوا ، فأمر لهم أبو جعفر بجوائزهم ، وأعطى أبا إسحاق مائة ألف .

وبعث أبو جعفر إلى عدة من قواد أبي مسلم بجوائز سنية ، وأعطى جميع جنده حتى رضُوا ، ورجع أصحابه وهم يقولون : «بعنا مولانا بالدراهم » .

لما قتل أبو مسلم ، كتب أبو جعفر إلى أبي نصر ـ مالك بن الهيثم ـ كتاباً عن لسان أبي مسلم ، يأمره بحمل ثقله وما خلف عنده ، وأن يقدم ، وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم . فلما رأى أبو نصر نقش الخاتم تاماً ، علم أن أبا مسلم لم يكتب الكتاب ، فقال : « أفعلتموها ؟ ! » ، وانحدر إلى همذان ، وهو يريد خراسان . فكتب أبو جعفر لأبي نصر ، عهده على شهرزور ، ووجه رسولاً إليه بالعهد ، فأتاه حين مضى الرسول بالعهد أنه قد توجه إلى خراسان . فكتب إلى (زهير بن التركي ـ وهو على همذان ـ) : « إن مر بك أبو نصر ، فاحبسه » . فسبق الكتاب إلى زهير ، وأبو نصر بهمذان ،

فعاد المنصور وكتب إلى زهير بن التركي : « إن لله دمك إن فاتك أبو نصر » وجاء أبو نصر إلى زهير ، فقال له زهير : « إني قد صنعت لك طعاماً ، فلو أكرمتني بدخول منزلي » . وقبل أبو نصر الدعوة ، وهيأ زهير أربعين رجلاً تخيرهم بنفسه ، وجعلهم في بيتين يفضيان إلى المجلس الذي هيأه ، فلما دخل مالك - أبو نصر - قال زهير كلمة السر : « يا أدهم ! عجل طعامك » فخرج اولئك الأربعون إلى مالك ، فشدوه وثاقاً ، ووضع في رجليه القيود ، وبعث به إلى المنصور . فلما أدخل عليه قال له المنصور : « ألست أنت الذي أشرت على أبي مسلم بالمضي إلى خراسان ؟ » . فقال أبو نصر : « نعم يا أمير المؤمنين ، كانت له عندي أياد وصنائع ، فاستشارني فنصحت له ، وأنت يا أمير المؤمنين إن اصطنعتني نصحت لك وشكرت » فعفا المنصور عنه ، وأحسن إليه . وبرهن أبو نصر بعد ذلك على صدق ولائه للمنصور ، وحسن بلائه في حمايته والدفاع عنه[1] .

كان أبو مسلم نازكاً ، شجاعاً ، ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ومروءة ، قيل له : بم نلت ما أنت فيه من القهر للأعداء ؟ فقال : ارتديت الصبر ، وأثرت الكتمان وحالفت الأحزان والأشجان ، وسامحت المقادير والأحكام ، حتى بلغت غاية همتي وأدركت نهاية بغيتي ، ثم قال :

قد نلت بالحزم والكتمان ما عجزت
عنه ملوك بني ساسان إذ حشدوا

---

(١) انظر : قراءات ٢ في آخر الكتاب (من خطب المنصور وأقواله) وكذلك - الكامل في التاريخ - ابن الأثير - (قتل أبى مسلم) ٤/ ٣٥٠ - ٣٥٦ وتاريخ الطبري ٧/ ٤٧٩ - ٤٩٤ والبداية والنهاية .

مـــا زلت أضـربهم بـــالسيف فـانتبهــوا

مـن رقـدة لم يـنمـهـا قـبـلهـم أحــد

طـفقـت أسعـى عـليـهـم فـي ديـــارهـم

والقـوم في ملكهم بـالشـــام قـد رقــدوا

ومـن رعى غـنمـاً فـي أرض مسبـعـــة

ونـــام عـنهـــا تـــولـى رعـيـهـــا الأسـد

وقال الشاعر أبو دلامة ممتدحاً المنصور وما قام به في قتل أبي مسلم :

أبـــا مـسـلم مـــا غـيـــر الـلـه نـعـمـة

عـلـــى عبـــده حتى يـغيـــرهـــا العبـد

أفي دولـــة المنصـــور حـــاولت غـــدرة

ألا إن أهـــل الـــغـــدر آبـــاؤك الـــكـــرد

أبـــا مسلم خـــوفتني القـتـــل فـــانتخى

عليـــك بمـــا خـــوفتني الأســـد الـــورد

* * *

٥ ـ ثورة سنباذ والراوندية غضباً لأبي مسلم

لم يكد خبر قتل أبي مسلم الخراساني ينتشر في خراسان ، حتى نهض رجل مجوسي اسمه (سنباذ) في قرية من قرى نيسابور (اسمها أهروانة) وأعلن الثورة غضباً لأبي مسلم ، وكثر أتباعه بسرعة مذهلة ، وانضم إليه حشد كبير من أهل الجبال ، فأمكن له الاستيلاء على نيسابور وقومس والري ، وتسمى باسم (فيروز أصبهبذ) . فلما صار بالري ، أخذ خزائن أبي مسلم ، وهي الخزائن التي كان قد تركها بالري قبل توجهه للقاء أبي العباس والذهاب إلى الحج ، وسبى الحرم ، ونهب الأموال ، وأعلن أنه يريد التوجه إلى الكعبة المكرمة ليهدمها ، فوجه إليه المنصور جيشاً بقيادة (جهور بن مراد العجلي) ضم عشرة آلاف فارس ، فالتقوا على طرف المفازة بين همذان والري . ووضع جهور خطته على اساس مطاولة سنباذ ، وعدم الاشتباك معه في معركة حاسمة ، نظراً لتفوق جيش خراسان الثائر ، فلما التقوا قدم سنباذ السبايا من النساء المسلمات على الجمال ، فلما رأين عسكر المسلمين ، قمن في المحامل ونادين : « وامحمداه ! ذهب الاسلام » ، ووقعت الريح في أثوابهن ، فنفرت الإبل ، وعادت على عسكر سنباذ ، فتفرق العسكر ، وكان ذلك بداية الهزيمة ، فقد تبع المسلمون الإبل ، ووضعوا السيوف في المجوس

ومن معهم ، فقتلوهم كيف شاؤوا ، وكان عدد القتلى نحواً من ستين ألفاً ، وسبى ذراريهم ونساءهم ، ثم قتل سنباذ بين طبرستان وقومس ، وكان بين مخرج سنباذ وقتله سبعون ليلة .

***

لم تكن هذه الثورة هي الثورة الوحيدة التي اندلعت في خراسان غضباً لقتل أبي مسلم ؛ ففي سنة احدى وأربعين ومائة للهجرة ، أعلن أتباع (الراوندية) ثورتهم على المنصور . وكان هؤلاء الراوندية قوم من أهل خراسان على رأي أبي مسلم صاحب الدعوة ، يقولون بتناسخ الأرواح ، ويزعمون أن روح آدم قد حلت في (عثمان بن نهيك ـ صاحب شرطة المنصور ـ) وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم ـ وبيده الموت والحياة ـ هو الخليفة المنصور . وأن الملك جبريل هو (الهيثم بن معاوية) . فلما ظهروا أتوا قصر المنصور ، فقالوا : « هذا قصر ربنا » فأخذ المنصور رؤساءهم ، فحبس منهم مائتين ، فغضب أصحابهم ، وأخذوا نعشاً وحملوا السرير ، وليس في النعش أحد ، وفروا به حتى صاروا على باب السجن ، فرموا بالنعش ، وحملوا على الناس ، ودخلوا السجن ، وأخرجوا أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة رجل ، فتنادى الناس ، وغلقت أبواب المدينة ، فلم يدخلها أحد ، وخرج المنصور من القصر ماشياً ، ولم يكن في القصر دابة ـ فجعل بعد ذلك اليوم يرتبط دابة في قصره ـ فلما خرج المنصور ، أتى بدابة فركبها ، وهو يسعى لقتالهم ، فتكاثروا عليه حتى كادوا يقتلونه . وجاء(معن بن زائدة الشيباني) ، وكان مستتراً من المنصور ، هارباً من وجهه ، بسبب اشتراكه من قبل مع ابن هبيرة في قتال العباسيين ، والمنصور شديد الطلب له ، وقد بذل مالاً كثيراً لمن يدل عليه أو

يرشد إلى مكان مخبئه ، فلما كان هذا اليوم حضر عند المنصور متلثماً ، وترجل ، وقاتل قتالاً شديداً ، وأبلى بلاء حسناً ، ووقف يدافع عن باب المنصور ، فسأل المنصور حاجبه ـ أبا الخصيب ـ من بالباب ؟ فقال له : « معن بن زائدة » فقال المنصور : « رجل من العرب ، شديد النفس ، عالم بالحرب ، كريم الحسب ، أدخله » . فلما دخل ، سأله المنصور : « إيه يا معن ، ما الرأي ؟ » فقال معن : « الرأي أن تنادي في الناس ، فتأمر لهم بالأموال » فقال المنصور : « وأين الناس والأموال ؟ ومن يقدم على أن يعرض نفسه لهؤلاء العلوج ، لم تضع شيئاً يا معن ، الرأي أن أخرج فأقف للناس ، فإذا رأوني قاتلوا وتراجعوا إلي ، وإن أقمت تهاونوا وتخاذلوا » . فأخذ معن بيده ، وقال : « لا يا أمير المؤمنين ! إذاً والله تقتل الساعة ، فأنشدك الله في نفسك » . وقال له أبو الخصيب مثلها ، فجذب ثوبه منهما وركب دابته ، وخرج معن ، وجاء حاجب المنصور (الربيع) ليمسك بلجام الدابة التي ركبها المنصور ، فأتى معن وقال للربيع : « تنح ، فأنا أحق بهذا اللجام منك في هذا الوقت ، وأعظم غناء » ، فقال المنصور : « صدق معن ، فادفعه اليه » . وتقدم رجل من الراوندية يريد الوصول للمنصور ، فقتله معن ، وجاء ثان وثالث حتى قتل أربعة ، فقال له المنصور : « أمنك الله على نفسك ومالك وأهلك ، مثلك يصطنع »[1] .

كان أبو نصر مالك بن الهيثم ، أثناء ذلك ، قد وقف للدفاع عن

---

(١) انظر تاريخ الطبري ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ـ أحداث سنة سبع وثلاثين ومائة وأحداث سنة إحدى وأربعين ومائة . وفيها أن معن بن زائدة الشيباني كان مختفياً في دار حاجب المنصور ذاته (أبي الخصيب) وهو الذي آواه وحماه إلى أن آمنه المنصور .

المنصور أيضاً ، ونودي في أهل السوق ، فرموهم وقاتلوهم ، وفتح باب المدينة ، فدخل الناس ، وجاء (خازم بن خزيمة)، فحمل على الراوندية حتى ألجأهم إلى سور المدينة ، ثم حملوا عليه فكشفوه مرتين . فقال خازم (للهيثم ابن شعبة) :إذا كروا علينا فاستبقهم إلى السور ـ الجدار ـ فإذا رجعوا فاقتلهم . فحملوا على خازم ، فتراجع لهم ، وصار الهيثم من ورائهم ، واعملوا السيف فيهم حتى قتل الراوندية جميعاً ، وأصيب في المعركة قائد شرطة المنصور (عثمان ابن نهيك) بسهم ، فوقع السهم بين كتفيه ، فمرض أياماً ومات منها فصلى عليه المنصور .

وتفقد المنصور بعد انتهاء المعركة (معن بن زائدة الشيباني) فلما لم يجده ، عرف انه عاد فاختفى من وجهه ، فقال : « أيظن معن أن لا أغفر ذنبه بعد بلائه ؛ أعطه الأمان ، وأدخله علي » . وجاء معن آمناً ، فرفع المنصور منزلته ، وقال لعمه (عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس) : « يا أبا العباس ! أسمعت بأشد رجل . . . لو رأيت اليوم معناً لعلمت أنه منهم » فقال معن : « والله يا أمير المؤمنين ! لقد أتيتك وإني لوجل القلب ، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم ، وشدة الاقدام عليهم ، رأيت ما لم أره من خلق في حرب ، فشد ذلك من قلبي ، وحملني ما رأيت مني » ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم ولاه اليمن . وجاء أبو الخصيب إلى المنصور ، فقال له : « لقد فرق معن صلته ، ولم يبق معه شيء من المال » فأجابه المنصور : « لو أراد مثل ثمنك ألف مرة لقدر عليه » .

* * *

٦ ـ متاعب على جبهة الشرق

كان المنصور قد عيّن لولاية خراسان (عبد الجبار بن عبد الرَّحمٰن) ، فانطلق عبد الجبار هذا لعمله ، وأخد في ظلم الناس ، وقتل رؤساء أهل خراسان ، حتى جاءت إلى المنصور رسائل فيها « قد نغِل الأديم ـ بمعنى قد فسدت الأرض ـ) . فقال المنصور لوزيره ـ أبي أيوب الخزاعي ـ : « **إن عبد الجبار قد أفنى شيعتنا ، وما فعل هذا إلاّ وهو يريد أن يخلع ـ يتمرد ـ** » فقال له أبو أيوب : « **ما** أيسرَ حيلته ! **أكتب إليه بأنك تريد غزو الروم ، فيوجه إليك الجنود من خراسان وعليهم فرسانهم ووجوههم ، فإذا خرجوا منها فابعث إليها من شئت ، فليس بها امتناع** » . فكتب إليه بذلك ، فجاء جواب عبد الجبار : « إن الترك قد جاشت ـ ثارت ـ وإن فَرَقْتَ الجنود ذهبت خراسان ، وضاعت » . فألقىٰ المنصور الكتاب إلى أبي أيوب ، وقال له : « ما ترى ؟ » فقال أبو أيوب : « . . . **قد أمكنك من قياده ، اكتب إليه : إن خراسان أهم إليّ من غيرها ، وأنا موجه إليك الجنود من قبلي ، ثم وجّه إليه الجنود ليكونوا بخراسان ، فإن همَّ بخلع ، أخذوا بعنقه** » . فلما ورد على عبد الجبار الكتاب ، كتب إليه : « إن خراسان لم تكن قط أسوأ حالاً منها في هذا العام ، وإن دخلها الجنود

هلكوا لضيق ما هم فيه من غلاء السعر » . فلما أتاه الكتاب ، ألقاه إلى أبي أيوب ، فقال للمنصور : « **قد أبدىٰ صفحته ، وقد خلع فلا تناظره** » .

أسرع أمير المؤمنين المنصور ، فوجَّه جيشاً بقيادة ابنه المهدي لقتال عبد الجبار ، فسارَ المهدي بجمع جيشه إلى نيسابور ، ودفع مقدمة لقواته بقيادة (خازم بن خزيمة) فتوجّهت هذه المقدمة لقتال عبد الجبار ، وبلغ ذلك أهل (مرو الروذ) فساروا بدورهم لقتال عبد الجبار ، وناصبوه الحرب ، وقاتلوه قتالاً شديداً حتى هزموه ، فانطلق هارباً حتى لجأ إلى مقطنة ، وتوارىٰ فيها ، فعبر إليه المجشر بن مزاحم من أهل مرو الروذ ، فأخذه أسيراً ، فلما قدم (خازم) أتاه به ، فألبسه خازم مدرعة صوف ، وحمله على بعير ، وجعل وجهه من قِبَل عجز البعير ، حتى انتهى به إلى المنصور ومعه ولده وأصحابه ، فبسط عليهم العذاب ، وضربوا بالسياط حتى استخرج منهم ما قدر عليه من الأموال ، ثم أمر (المسيب بن زهير) بقطع يدي عبد الجبار ورجليه ، وضرب عنقه ، ففعل ذلك المسيب ، وأمر المنصور بتسيير ولده إلى دَهْلك ـ وهي جزيرة على ضفة البحر بناحية اليمن ـ .

* * *

كره المنصور أن يعود جيش المهدي ، بعد ما أنفقه لتجهيز هذا الجيش من نفقات ضخمة ، من غير أن يقوم بأعمال قتالية كبيرة ، فكتب المنصور إلى المهدي يأمره بغزو طبرستانِ ، وأن يرسل قوة بقيادة (أبي الخصيب وخازم بن خزيمة) لقتال الأصبهبذ ـ ملك طبرستان ـ . وكان الأصبهبذ يومئذٍ يخوض حرباً ضد (المصمغان ـ ملك دنباوند في نواحي السند ـ) . فلما علم الأصبهبذ بأن جيش المسلمين قد دخل بلاده ، وأن أبا الخصيب قد دخل (سارية) اغتاظَ

لذلك، وكتب إلى المصمغان: «متى صاروا إليّ صاروا إليك». واتّفقا على محاربة المسلمين، وانصرف الأصبهبذ إلى بلاده فحارب المسلمين، وطالت تلك الحرب. وكان (أبرويز - أخو المصمغان -) محباً للمسلمين، متعاطفاً معهم، سبق له أن تعرف أيام ثورة سنباذ وفتنة الراوندية بالقائد أبي جعفر عمر بن العلاء، فلما رأى أن أمَد الحرب قد طال، كتب إلى الخليفة المنصور: «يا أمير المؤمنين! إن عمر أعلم الناس ببلاد طبرستان، فوجهه».

وأخذ الخليفة المنصور بهذه النصيحة، فوجَّه أبا جعفر عمر بن العلاء لحرب الأصبهبذ[1] وضمَّ أبو جعفر إليه خازم بن خزيمة، فدخل الرُّويان ففتحها، وأخذ قلعة الطاق وما فيها، وطالت الحرب، فألحَّ خازم على القتال، ففتح طبرَستان، وقتل منهم فأكثر. وسار الأصبهبذ إلى قلعته، وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره، فكتب المهدي بذلك إلى أبي جعفر المنصور، فوجه أبو جعفر جماعة أحصوا ما في الحصن، وانصرفوا. ودخل الأصبهبذ بلاد جيرن، من طريق الديلم.

فلما كانت سنة اثنتين وأربعين ومائة، عاد الأصبهبذ فنقض العهد بينه وبين المسلمين، وقتل من كان ببلاده من المسلمين، فلما علم المنصور بما فعله الأصبهبذ بالمسلمين، وجه جيشاً بقيادة خازم ابن خزيمة وروح بن حاتم ومعه مرزوق أبي الخصيب، مولى أبي

---

(١) وفي ذلك قال بشار (تاريخ الطبري ٧/ ٥١٠):

فقل للخليفة إن جئته نصيحاً ولا خيرَ في المُتَّهَمْ
إذا أيقظتك حروب العدا فنبِّه لها عُمَراً ثم نَمْ
فتى لا ينام على دمنةٍ ولا يشربُ الماء إلَّا بدَمْ

جعفر المنصور ، فأقاموا على حصن الأصبهبذ ، محاصرين له ولمن معه في حصنه ، وهم يقاتلونهم حتى طالَ عليهم المقام . فاحتال أبو الخصيب في ذلك فقال لأصحابه : « اضربوني ، واحلقوا رأسي ولحيتي » ففعلوا ذلك به ، ولحق بالأصبهبذ صاحب الحصن ، فقال له : « إني ركب مني أمر عظيم ، ضربتُ وحلق رأسي ولحيتي . وقد فعلوا ذلك بي تهمة منهم لي أن يكون هواي معك » وأخبره أنه معه ، وأنه دليل له على عورة عسكرهم ، فقبل الأصبهبذ منه ذلك ، وجعله في خاصته ، وألطفه . وكان باب مدينتهم من حجر يلقىٰ إلقاء يرفعه الرجال ، وتضعه عند فتحه وإغلاقه ، وكان قد وكل به الأصبهبذ ثقات أصحابه ، وجعل ذلك نوباً بينهم ، فقال له أبو الخصيب يوماً : « ما أراك وثقت بي ، ولا قبلت نصيحتي ؟ ! » قال : « وكيف ظننتَ ذلك ؟ » فقال أبو الخصيب : « لتركك الاستعانة بي فيما يعنيك ، وتوكيلي فيما لا تثق به إلاَّ بثقاتك » . فجعل الأصبهبذ يستعين به بعد ذلك ، فيرى منه ما يحب ، إلى أن وثق به ، فجعله فيمن ينوب في فتح باب مدينته وإغلاقه ، فتولى له ذلك حتى أنس به . ثم كتب أبو الخصيب إلى رَوْح بن حاتم وخازم بن خزيمة ، وصير الكتاب في نشابة ، ورماها إليهم ، وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة ، وواعدهم ليلة سمَّاها لهم في فتح الباب . فلما كان في تلك الليلة فتح لهم ، فقتلوا من فيها من المقاتلة ، وسبوا الذراري ، ومصَّ الأصبهبذ خاتماً له فيه سم فقتل نفسه .

* * *

ثمانية أعوام مضت وخراسان تعيش حياة الهدوء النسبي والاستقرار ، حتى إذا ما كانت سنة **خمسين ومائة للهجرة** نشبت فيها ثورة قوية بقيادة أستاذسيس ، وشملت أقاليم هراة وباذغيس

وسجستان وغيرها . وكان أهل (مرو الروذ) هم أول من تصدّى لمجابهة هذه الثورة أيضاً ، فقد خرجوا بقيادة (الأجثم المروروذي) وقاتلوا جيش أستاذسيس بعناد وضراوة ، غير أن أستاذسيس نجح في تحقيق انتصارات متتالية على أهل مرو الروذ ، وأكثر القتل فيهم ، وقتل عدداً كبيراً من قادتهم ، وفيهم الأجثم ذاته ، وطال أمد الحرب ، واستطار شرها .

علم المنصور بأمر الثورة ، فوجَّه (خازم ابن خزيمة) إلى المهدي ، فولاَّه المهدي محاربة أستاذسيس ، وضمَّ القواد إليه . وكان (معاوية بن عبيد الله) وزير المهدي يوهن أمر خازم ، إذ كان يُخرج الكتب إليه وإلى غيره من القادة بالأمر والنهي ، ويتدَّخل في إدارة الحرب خلافاً لما كان يراه خازم .

وبعد أن عيل صبر خازم ، تظاهر بالمرض، حتى شاعَ أمر مرضه في معسكره، ثم ركب البريد، وتوجَّه لمقابلة المهدي بنيسابور، فسلَّم عليه، واستخلاه ، فلما خلا به ، شكا إليه أمر معاوية بن عبيد الله ، وأخبره بعصبيته وتحامله وما كان يرد من كتبه عليه وعلى من يتبعه من القواد ، وما صاروا إليه بذلك من الفساد والتآمر في أنفسهم والاستبداد بآرائهم ، وقلة السمع والطاعة . وأن أمر الحرب لا يستقيم إلاَّ برأس ، وألاَّ يكون في عسكره لواء يخفق على رأس أحد إلاَّ لواؤه أو لواء هو عقده . وأعلمه أنه غير راجع إلى قتال أستاذسيس ومن معه إلاَّ بتفويض الأمر إليه وإعفائه من معاوية بن عبيد الله ، وأن يأذن له في حل ألوية القواد الذين معه ، وأن يكتب إليهم بالسمع له والطاعة . فأجابه المهدي إلى كل ما سأل .

انصرف خازم إلى معسكره ، فعمل برأيه ، وحل لواء من رأى

حل لوائه من القواد ، وعقد لواء لمن أراد ، وضمَّ إليه من كان انهزم من الجنود ، فجعلهم حشواً يكثر بهم من معه في أخريات الناس .
ولم يقدمهم لما في قلوب المغلوبين من روعَة الهزيمة ، وكان من ضمَّ إليه من هذه الطبقة اثنين وعشرين ألفاً ، ثم انتخب ستة آلاف رجل من الجند ، فضمهم إلى اثني عشر ألفاً كانوا معه متخيرين ، وكان بكار بن مسلم العُقَيلي فيمن انتخب وعينه على مقدمته ، واستعمل الهيثم بن شعبة بن ظهير على ميمنته ، ونهار بن حصين السعدي على ميسرته، وتُرار خدا على ساقته ـ مؤخرته ـ وكان هذا من أبناء ملوك أعاجم خراسان ، وأسند لواءَه إلى الزبرقان ، وعلمه مع مولاه بسام ، ثم تعبأ للقتال وخندق ، ومكر بجيش خصمه (أستاذسيس) وراوغهم في تنقله من موضع إلى موضع ، ومن خندق إلى خندق، حتى قطعهم ، وكان أكثرهم من الرجالة ـ المشاة ـ . ثم سار خازم إلى موضع فنزله وخندق عليه ، وأدخل خندقه جميع ما أراد ، وأدخل فيه جميع أصحابه ، وجعل له أربعة أبواب ، وجعل على كل باب من أصحابه الذين انتخبَ ، وهم أربعة آلاف ، وجعل مع بكار صاحب مقدمته ، ألفين ، تكملة الثمانية عشر ألفاً . وأقبل جند أستاذسيس ومعهم الفؤوس والمعاول وسواها يريدون ردم الخندق ودخوله ، فأتوا من الباب الذي كان عليه بكار بن مسلم ، فشدوا عليه شدة لم يكن لأصحاب بكار نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق . فلما رأى ذلك بكار ، رمىٰ بنفسه ، فترجَّل على باب الخندق ، ثم نادى أصحابه : « يا بني الفواجر ! من قبلي يؤتىٰ المسلمون » . فترجَّل من كان معه من عشيرته وأهله ، نحواً من خمسين رجلاً ، فمنعوا بابهم حتى أجلوا القوم عنه . وأقبَل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجل من أهل سجستان كان يعمل مع أستاذسيس وهو

الذي يدبر أمرهم ـ يقال له الحريش ـ ، فلما رآه خازم مقبلاً ، بعث إلى الهيثم بن شعبة ، وكان في الميمنة : « . . . أن أخرج من بابك الذي أنت عليه ، فخذ غير الطريق الذي يوصلك إلى الباب الذي عليه بكار ، فإن القوم قد شغلوا بالقتال ، وبالإقبال علينا ، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم ، فآتهم من خلفهم » . وكانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم دعم لجيش خازم بقيادة أبي عون وعمرو بن سلم ابن قتيبة من طخارستان . وبعث خازم إلى بكار بن مسلم : « إذا رأيت رايات الهيثم بن شعبة قد جاءَتك من خلفك ، فكبروا وقولوا : قد جاء أهل طخارستان » ففعل ذلك الهيثم وجنده . وخرج خازم في القلب على الحريش السجستاني ، فاجتلدوا بالسيوف جلاداً شديداً ، وصبر بعضهم لبعض ، فبينا هم على تلك الحال إذ ظهرت أعلام الهيثم وجنده ، فتنادوا فيما بينهم : « لقد جاء جيش طخارستان » . فلما رأى أصحاب حريش تلك الأعلام ، ونظر من كان بإزاء بكار بن مسلم إليها ، شد عليهم أصحاب خازم فكشفوهم ، ولقيهم أصحاب الهيثم ، فطعنوهم بالرماح ، ورموهم بالنشاب ، وخرج عليهم نهار بن حصين وأصحابه من ناحية الميسرة ، كما خرج عليهم بكار بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم ، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف ، فقتلهم المسلمون وأكثروا . فكان من قتل منهم في تلك المعركة نحواً من سبعين ألفاً وأسروا أربعة عشر ألفاً ، ولجأ أستاذسيس إلى جبل في عدة من أصحابه يسيرة ، فقدم خازم الأربعة عشر ألف أسير فضرب أعناقهم ، وسار حتى نزل بأستاذسيس في الجبل الذي كان لجأ فيه ، ووافى خازماً بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم بن قتيبة ، في أصحابهما ، فأنزلهم خازم ناحية ، وقال : « كونوا مكانكم حتى نحتاج إليكم » فحصر خازم

أستاذسيس وأصحابه ، حتى نزلوا على حكم أبي عَوْن ، ولم يرضوا إلَّا بذلك ، فرضي بذلك خازم ، فأمر أبا عون بإعطائهم أن ينزلوا على حكمه ، ففعل . فلما نزلوا على حكم أبي عون حكم فيهم أن يوثق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد ، وأن يعتق الباقون وهم ثلاثون ألفاً ، فأنفذ ذلك خازم من حكم أبي عون ، وكسا كل رجل منهم ثوبين ، وكتب خازم بما فتح الله عليه وأهلك عدوه، إلى المهدي ، فكتب بذلك المهدي إلى أمير المؤمنين المنصور ، وانتهت الثورة الكبرى التي ضمَّت ما يزيد على مائة ألف ثائر .

* * *

لم تكن هذه سوى بعض ما عاناه المنصور من متاعب على جبهة الشرق ، ففي سنة ثلاث وأربعين ومائة ، علم المنصور أن (الديلم) قد أوقعوا بالمسلمين ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فاستنفر كل قادر على حمل السلاح من أهل الكوفة والبصرة ، ووجهه لقتال الديلم . وفي السنة التالية (١٤٤ هـ) وجه أهل الكوفة والبصرة وواسط والموصل والجزيرة لقتال الديلم بقيادة محمد بن أبي العباس ابن عبدالله بن محمد بن علي ، فأمكن بذلك إخضاع الديلم . غير أن هذه المتاعب كانت أقل خطراً ، وأقل تهديداً ، من ذلك الذي كان يشكله أبناء العمومة ـ من الهاشميين ـ . ولهذا لم يكن من الغريب أن يحظى هذا الخطر باهتمام المنصور كله .

* * *

٧ ـ الصراع ضد الهاشميين

عندما نزل الاضطراب بالدولة الأموية ، اجتمع بنو هاشم بمكة المكرمة ، وناقشوا أمر من يعقدون له الخلافة ، وقرروا مبايعة محمد ابن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، ثم انتقلت الخلافة للعباسيين ، ولم ينسَ محمد ولا نسي أخوه ابراهيم أن الخلافة كادت تنتهي إليهما ، وأن أبناء عمومتهما (العباسيين) قد حازوا الخلافة من دونهما . فلما توجه أبو جعفر المنصور للحج هو وأبو مسلم الخراساني في حياة أمير المؤمنين أبي العباس السفاح ، قابله بنو هاشم جميعاً ، إلاَّ محمداً وإبراهيم بني عبد الله ، فسأل أبو جعفر عنهما ، فقال له زياد بن عبيد الله : « ما يهمك من أمرهما ؟ أنا آتيك بهما » . ومضىٰ أبو جعفر المنصور بعد أداء مناسك الحج ، ولم يتمكن من مقابلتهما ، ثم آلت إليه الخلافة بوفاة أخيه أبي العباس ، ومنذ ذلك الوقت ، لم تكن له همة إلاَّ السؤال عن محمد ، فدعا بني هاشم رجلاً رجلاً ، وتحدَّث إلى كل واحد منهم على انفراد ، فكانوا يقولون له : « يا أمير المؤمنين ! قد علم أنك قد عرفته يطلب الخلافة قبل اليوم ، فهو يخافك على نفسه ، وهو لا يريد لك خلافاً ، ولا يحب لك معصية » . غير أن حسن بن زيد خالف بني

هاشم ، وقال لأبي جعفر : « والله ما آمن وثوبه عليك ، فإنه للذي لا ينام عنك ، فَرَ رأيك ! » .

لم يكن أبو جعفر المنصور ممَّن يأخذ بالظن أو يحاسب على الشك والريبة ، ورغب في الحصول على معلومات دقيقة عن نوايا (محمد وابراهيم ، ابني عبد الله بن حسن) ونشاطهما . فاشترى رقيقاً من رقيق الأعراب ، وفرقهم في ظهر المدينة ، فكان الرجل منهم يرد الماء ، كالمار وكالضال ، فيتحرون ويتجسسون . ثم وفد علىٰ المنصور وفد من السند ، فيهم (عقبة بن سلم بن نافع) فلما قضوا حوائجهم ، وخرجوا . استردَّ المنصور (عقبة) وقال له : « ممَّن أنت ؟ » . فأجاب عقبة « من الأزد ، من بني هُناءة » فقال له المنصور : « إني لأرى لك هيئة وموضعاً ، وإني لأريدك لأمر أنا به معني ، ولم أزل أرتاد له رجلاً ، عسىٰ أن تكونه ، إن كفيتنيه رفعتك » فأجاب عقبة : « إني رجل من جند أمير المؤمنين وخدمه ، وأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين فيَّ ! » فقال له المنصور : « فأخفِ شخصك ، واستر أمرك ، وآتني في يوم كذا وكذا ، في وقت كذا وكذا » . فأتاه في الموعد المحدَّد ، فقال له المنصور : « إن بني عمنا هؤلاء ، قد أبوا إلَّا كيداً لملكنا واغتيالاً له ، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا ، يكاتبونهم ، ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف من ألطاف بلادهم ، فأخرج بكساً وألطاف وعين - مال - حتى تأتيهم متنكراً بكتاب تكتبه عن أهل هذه القرية ، ثم تسبر ناحيتهم ، فإن كانوا قد نزعوا عن رأيهم ، فأحبب والله بهم وأقرب ، وإن كانوا على رأيهم ، علمتُ ذلك ، وكنتُ على حذر واحتراس منهم . فأشخص حتى تلقىٰ عبد الله ابن حسن متقشفاً متخشعاً ، فإن جبهك - بمعنى صدمك ورفض استقبالك - وهو فاعل ذلك حتماً ،

فاصبر وعاوده ، فإن عاد فاصبر حتى يأنس بك ، وتلين لك ناحيته ، فإذا ظهر لك ما في قلبه ، فاعجل عليَّ » .

سار عقبة لتنفيذ مهمته حتى قدم على عبد الله ، فلقيه بالكتاب ، فأنكره ونهره ، وقال له: «ما أعرف هؤلاء القوم» ، فلم ينصرف ويعود حتى قبل كتابه وألطافه ـ هداياه ـ وأنس به ، فسأله عقبة الجواب ، فقال : أما الكتاب فإني لا أكتب إلى أحد ، ولكن أنت كتابي إليهم ، فأقرئهم السلام ، وأخبرهم أن ابنيَّ خارجان لوقت كذا وكذا . . . ورجع عقبة إلى أمير المؤمنين المنصور فأخبره الخبر . وعلى أثر ذلك ، قرَّر المنصور التوجّه بنفسه للحج ، وقال لعقبة : « « إذا صرت بمكان كذا وكذا لقيني بنو حسن ، فيهم عبد الله ، فأنا مبجله ، ورافعٌ مجلسه ، وداع بالغذاء ، فإذا فرغنا من طعامنا فلحظتك ، فأمثل بين يديه قائماً ، فإنه سيصرف بصره عنك ، فاستدر حتى تغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينه منك ثم حسبك ، وإيَّاك أن يراك ما دام يأكل » . فخرج حتى إذا تدفع في البلاد ، لقيه بنو حسن ، فأجلس عبد الله إلى جانبه ، ثم عاد بالطعام ، فأصابوا منه ، ثم أمر به فرفع ، فأقبل على عبد الله ، فقال : « يا أبا محمد ! قد علمت ما أعطيتني من العهود والمواثيق ألا تبغيني سوءاً ، ولا تكيد لي سلطاناً » . فأجاب عبد الله : « فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين » . فعادَ المنصور للحديث وقال : « يا أبا محمد ! محمد وابراهيم أراهما قد استوحشا من ناحيتي ، وإني لأحب أن يأنسا بي ، وأن يأتياني فأصلهما وأخلطهما بنفسي » . فأطرق عبد الله طويلاً ، ثم رفع رأسه ، فقال : « وحقك يا أمير المؤمنين ، فما لي بهما ، ولا بموضعهما من البلاد علم ، ولقد خرجا من يدي » ، فردَّ عليه أبو جعفر : « لَا تفعل يا أبا محمد ، اكتب إليهما وإلى من يوصل كتابك إليهما » . ومضىٰ عبد الله يحلف بأنه لا يعرف موضعهما ، وأبو جعفر

يكرر : « لا تفعل يا أبا محمد ، لا تفعل يا أبا محمد ، لا تفعل يا أبا محمد » . ووقف (عقبة) في مواجهة عبد الله ، فاستدارَ عبد الله ، وعاد عقبة حتى قام بين يديه ، فأعرض عنه ، فرفع رأسه حتى قام من وراء ظهره ، فغمزه بأصبع قدمه ، فرفع رأسه فملأ عينه منه ، وعندها وثب حتى جثا بين يدي أبي جعفر ، فقال له أبو جعفر : « أين ابنك ؟ » فأجاب عبد الله : « لا أدري ! » فقال له أبو جعفر : « لتأتيني به ! » فردَّ عبد الله : « لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه » . فقال المنصور : « يا ربيع ! قم به إلى الحبس » . فقال عبد الله : « أقلني يا أمير المؤمنين » . فأجابه المنصور : « لا أقالني الله إن أقلتك » . ومضىٰ الربيع بعبد الله إلى السجن .

تابع أمير المؤمنين المنصور طريقه للحج (سنة أربعين ومائة) ، واجتمع بمكة محمد وابراهيم ابنا عبد الله مع أشياعهما ، وتباحثوا في أمرهم ، فقال الأشتر (عبد الله بن محمد ابن عبد الله) : « أنا أكفيكموه ـ بمعنى أنني سأقوم بقتل المنصور ـ » ، فقال محمد : « لا والله ! لا أقتله أبداً غيلة حتى أدعوه » ، فنقض أمرهم ذلك وما كانوا قد اتَّفقوا عليه . وكان قد دخل معهم في أمرهم قائد من قواد أبي جعفر من أهل خراسان ، واتَّفق معهم . وجاء من يخبر المنصور بأمر خيانة هذا القائد وانضمامه إلى جماعة محمد ، فأرسل المنصور في طلب القائد الخراساني ، فأفلت ، ولكنه ظفر بجماعة من أصحاب ذلك القائد ، فقتلهم .

***

كان أبو جعفر المنصور عندما حج سنة ست وثلاثين ومائة ، قد سأل عن محمد وابراهيم إبني عبد الله ـ

على نحو ما سبق ذكره ـ فقال له : (**زياد بن عبيد الله الحارثي**) : ما يهمك من أمرهما ! أنا آتيك بهما » . فلما صارت الخلافة للمنصور ، عين زياد بن عبيد الله والياً على المدينة المنورة ، وكلفه بمراقبة محمد وإبراهيم وتقصي أخبارهما . وكان لزياد هذا كاتب يقال له حفص بن عمر ـ من أهل الكوفة ـ يتشيع لآل البيت من بني هاشم ، فكان يثبط زياداً عن طلب محمد وابراهيم ، وعلم المنصور بتهاون زياد عن طلب محمد وإبراهيم ، فكتب إليه ، وألح في الطلب يتنجزه ما كان ضمن له . وقدم محمد إلى المدينة ، فبلغ ذلك زياداً ، فتلطف له وأعطاه الأمان ، على أن يظهر وجهه للناس معه ، فوعده ذلك محمد ، فركب زياد ووعد محمداً سوق الظهر ، فالتقيا بها ، ومحمد معلن غير مختف ، ووقف زياد إلى جنبه ، وقال : « يا أيها الناس ! هذا محمد ابن عبد الله ابن حسن» ثم أقبل عليه وقال له : «إلحق بأي بلاد الله شئت » وتوارى محمد . ثم دخل إبراهيم على زياد ، وعليه درع حديد تحت ثوبه ، فلمسها زياد ، وعندها قال لابراهيم : « يا أبا إسحاق ! كأنك اتهمتني ذلك ، والله ما ينالك مني أبداً » . وتواترت الأخبار بذلك على أبي جعفر المنصور ، كما علم بما فعله أهل المدينة عندما ظهر لهم محمد إلى جانب زياد ، إذ تصايحوا : « المهديّ ! المهدي » ، فقرر عزل زياد عن ولاية المدينة المنورة .

وجه أمير المؤمنين المنصور إلى المدينة المنورة رجلاً من أهل خراسان ـ يدعى أبا الأزهر ـ ومعه كتاب فيه تولية قاضي زياد (عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله) وعزل زياد بن عبيد الله ، وتقييده بالحديد ، واصطفاء ـ مصادرة ـ ماله ، وقبض جميع ما وجد له ، وأخذ عماله وارسالهم جميعاً إلى أبي جعفر . وقام القاضي

عبد العزيز بتنفيذ أوامر الخليفة المنصور ، وعندها قال زياد : « واللّهِ ما أعرف لي عند أمير المؤمنين ذنباً ، غير أني أحسبه غضب علي بسبب ابني عبد الله ، ووجد دماء بني فاطمة عليَّ عزيزة » . وروى زياد ما حدث له عند اعتقاله وإرساله إلى المنصور ، فقال : «طرقني رسلُ أمير المؤمنين نصف الليل ، فخرجت ملتحفاً بإزاري ، ليس عليَّ ثوب غيره ، فنبهت غلماناً لي وخصياناً في سقيفة الدار ، فقلت لهم : إن هدموا الدار فلا يكلمهم منكم أحد . فدقوا طويلاً ثم انصرفوا ، وغابوا ساعة ، ثم عادوا ومعهم جرز ـ أعمدة من حديد ـ ، وصيّحوا فلم يكلمهم أحد . ثم جاؤوا بأمر ليس عليه صبر ، فظننت والله أن قد هدموا الدار عليّ ، فأمرت بفتحها ، وخرجت إليهم ، فاستحثوني وهموا أن يحملوني ، وجعلت أسمع العزاء من بعضهم حتى أوصلوني إلى حيث يقيم المنصور ، فأخذ رجلان بعضدي ، حتى أتيا بي حجرة القبة العظمى ، فإذا حاجب المنصور ـ الربيع ـ واقف ، فقال لي : ويحك يا زياد ! ماذا فعلت بنا وبنفسك ؟ ومضى بي حتى كشف ستر باب القبة ، فأدخلني ووقف خلفي بين البابين ، فإذا الشمع في نواحي القبة ، فهي تزهر ، ووصيف قائم في ناحيتها ، وأبو جعفر محتب بحمائل سيفه على بساط ليس تحته وسادة ولا مصلى ، وإذا هو منكس رأسه ينقر بقضيب من حديد في يده ، وهمس الربيع في أذني : إنه على هذه الحال من حين صلى العتمة إلى تلك الساعة . وطال وقوفي ، حتى إني لأنتظر نداء الصبح ، وأجد لذلك فرجاً ، فما يكلمني بكلمة ، ثم رفع رأسه إلي ، وقال : « أين محمد وإبراهيم ؟ » ثم نكس رأسه ، ونكت أطول مما مضى له ، ثم رفع رأسه ثانية ، فقال : (أين محمد وإبراهيم ؟ قتلني الله إن لم

أقتلك ؟) . فقلت له : (إسمع ودعني أكلمك) فأجابني : (قل) . فقلت له : (أنت نفرتهما عنك ! بعثت رسولاً بالمال الذي أمرت بقسمه على بني هاشم ، فنزل القادسية ، ثم أخرج سكيناً يحده ، وقال : بعثني أمير المؤمنين لأدبح محمداً وإبراهيم ، فجاءتهما بذلك الأخبار ، فهربا) فصرفني فانصرفت » .

عمل أبو جعفر بجد اكبر ، بعد أن حبس عبد الله ، على مطاردة ابنيه محمد وإبراهيم ، فبعث عيناً لـه ـ جاسـوساً ـ وكتب معـه كتابـاً على ألسن الشيعة إلى محمد ، يذكرون طاعتهم ومسارعتهم ، وبعث معه بمال وألـطاف ـ هدايـا ـ فقدم الـرجل المـدينة ، فـدخل على عبد الله بن حسن ، فسأله عن محمد ، فذكر له أنه في جبل جهينة ، وقال له : « امـرر بعلي بن حسن ، الرجـل الصالـح الذي يـدعى الأغر ، وهو بذي الأبر ، فهو يرشدك » ، فأتاه فأرشده . وكان لأبي جعفر كاتب على سره ، كان متشيعاً ، فكتب إلى عبد الله ابن حسن بأمر ذلـك العين ـ الجاسـوس ـ وما بعث لـه ، فقدم الكتـاب على عبدالله ، فارتاعوا . وبعثوا (أبا هبـار) إلى علي بن الحسن وإلى محمـد ، ليحذرهم الـرجل . فخـرج أبو هبـار حتى نزل بعلي بن حسن ، فسأله ، فأخبره أن قد أرشده إليه . فجاء أبو هبار إلى محمد في موضعه الذي هو به ، فإذا هو جالس في كهف معه عبد الله بن عامر الأسلمي وابنا شجاع وغيرهم ، والرجل ـ الجاسوس ـ معهم ، وهو أعلاهم صوتاً وأشدهم انبساطـاً ، فلما وقـع بصره على (أبي هبار) ظهر عليه بعض النكرة ، وجلس أبو هبار مع القوم ، فتحدث ملياً ، ثم قال لمحمد : إن لي حاجة ، فنهض محمد ونهض أبو هبار معه ، فأخبره بخبر الرجل . فبهت ، وقال : ما الرأي ؟ فأجابه أبو هبار : إحدى ثلاث ، أيها شئت ، تدعني فأقتل الرجل ، أو توقره

حديداً وتنقله معك حيث انتقلت ، او تشده وتوثقه وتودعه بعض أهل ثقتك من جهينة . فقرر محمد تنفيذ الثالثة ، ولما رجعا وجدا بـأن الرجل قد اختفى ، وبحث عنه القوم في الجبل وما حوله ، فلم يعثروا له على أثر ، ونجح الرجل في العودة إلى الخليفة المنصور ، وأخبره الخبر كله .

قرر أبو جعفر تعيين وال جديد على المدينة المنورة بعد عزل زياد ، واختار (**محمد بن خالد**) وأمره بـالجد في طلب محمـد ، وبسط يده في النفقة في طلبه ، فأغذ السير حتى قدم المدينة ، فوجد في بيت المال سبعين ألف دينار وألف ألف درهم ، فاستولى على ذلك المال ، ورفع في محاسبته أموالاً كثيرة زعم أنه أنفقها في طلب محمد ـ مطاردته ـ فاستبطأه أبو جعفر ، واتهمه ، ولم يلبث أن عزله .

شعر المنصور بالضيق لفشله في اختيار وال للمدينة المنورة بعد تقصير (زياد بن عبيد الله الحارثي) ومن بعده (محمد بن خالد) ، فأرسل إلى (أبي السعلاء ـ من قيس بن عيلان ـ)حتى يستشيره في الأمر ، فلما جاء أبو السعلاء ، **خاطبه المنصور بقوله : « ويلك ! أشر عليَّ في أمر هـذين الرجلين ـ محمـد وإبراهيم ـ فقـد غمني أمرهما » فقال له أبو السعلاء : « أرى لك أن تستعمل رجلاً من ولد الزبير أو طلحة ، فإنهم يطلبونهما ولو وصـلا إلى كوكب زُحَـلْ ، فأشهد لا يلبثونهما أو يخرجوهما إليك » . فرد المنصور : « قاتلك الله . ما أجود رأياً جئت به ! والله ما غبيَ هذا علي ، ولكني أعاهد الله ألا أثأر من أهل بيتي بعـدوي وعدوهم ، ولكني أبعث عليهم صعيليكاً من العرب ، فيفعل ما قلت . ووقع اختياره على (رياح بن عثمان بن حيان) .**

وقد جاء هذا الاختيار بنتيجة استشارة أيضاً ، فعندما خرج المنصور من بيته استقبله (يزيد بن أسيد السُلَمي) فدعاه المنصور ، وسايره ، ثم قال له : « أما تدلني على فتى من قيس ، مُقل ـ بمعنى فقير ـ أغنيه وأشرفه وأمكنه من سيد اليمن يلعب به ؟ ـ يعني بذلك ابن القسري ـ » فأجاب يزيد السلمي : « بلى ! قد وجدته يا أمير المؤمنين ! إنه رياح بن عثمان بن حيان المري » فقال المنصور : « فلا تذكرن هذا لأحد » ثم انصرف فأمر بنجائب وكسوة ورحال ، فهيئت للمسير ، فلما انصرف من صلاة العتمة ، دعا برياح ، فذكر له ما بلا من غش زياد وابن القسري في ابني عبد الله ، وولاه المدينة ، وأمره بالمسير من ساعته ، قبل أن يصل إلى منزله ، فخرج رياح مسرعاً حتى وصل المدينة .

جد (رياح) في طلب محمد ، فأخبر أنه في شعب من شعاب رضوى ـ جبل جهينة ، وهي من عمل ينبع ـ فطلبه وبحث عنه ، فذكر له أنه بشعب من رَضْوىَ ، فخرج إليه بالخيل والرحال ، ففزع منه محمد ، وأفلت ، واستمر البحث ، غير أن محمداً نجح كل مرة في الهرب . فلما طال على المنصور أمره ، أرسل إلى (رياحٍ) يأمره باعتقال ابني حسن ، فاعتقلهم رياحٌ[1] ووضع الحدادون القيود في

---

(١) ذكر الطبري (أحداث سنة ١٤٤ هـ) أسماء الذين اعتقلهم رياح ، وفيهم : « حسن وابراهيم ابني حسن بن حسن ، وحسن بن جعفر بن حسن بن حسن ، وسليمان وعبد الله ابني داود بن حسن بن حسن ، ومحمداً واسماعيل وإسحاق ابني ابراهيم بن حسن بن حسن ، وعباس بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، وكذلك علي بن حسن بن حسن بن حسن العابد . وحبس معهم أبا جعفر عبد الله بن حسن بن حسن أخا علي » . وضاق السجن بهم ، فما كان من رياح إلاَّ أن اشترى داراً رحبة ، أنزلهم بها .

أيديهم وأرجلهم ، ثم حملوا إلى (الربذة) .

ولما حمل بنو حسن ، جاء محمد إلى أمه هند ، فقال لها : « **إني قد حملت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به ، ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم ، فعسى أن يخلى عنهم** » .

فما كان من أم محمد ـ هند ـ إلا أن تنكرت ، ولبست الخمار، ثم جاءت السجن كهيئة الرسول ، فأذن لها ، فلما رآها عبد الله ، نهض إليها ، فأخبرته ما قاله محمد ، فأجابها : « **كلا ! بل نصبر فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً ، قولي له : فليدع إلى أمره ، وليجدّ فيه ، فإن فرجنا بيد الله** » . فانصرفت ، وزاد ذلك من تصميم محمد ، وشد من عزيمته .

ولما نقل بنو حسن إلى الربذة ، جاء محمد وإبراهيم متنكرين بهيئة الأعراب ، وأمكن لهما التحدث إلى أبيهما ـ عبد الله ـ فسألاه في الخروج ، واعلان الثورة ، واستشاراه فيما يفعلان ، فقال لهما : « **لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك ، وإذا ما منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين ، فلا يمنعكما أن تموتا كريمين** » .

تعرض بنو حسن في سجنهم لأنواع شتى من التعذيب والاضطهاد ، غير أنهم صبروا للبلاء ، وحاول أبو جعفر الحصول منهم عما يريده من معلومات عن تنظيمهم وأنصارهم وتحركاتهم ، وأماكن (محمد وإبراهيم) حيث يقيمان ، ولكن الوسائل جميعها فشلت في تأمين المعلومات المطلوبة . وعند ذلك ، أمر أبو جعفر بنقلهم من (الربذة) إلى العراق (سنة ١٤٤هـ) . ولما انحدر أبو جعفر ببني حسن ، رجع رياح إلى المدينة المنورة ، فألح في الطلب . وضاقت الدنيا على (محمد) حتى عزم على الظهور

وإعلان الثورة ، وشجعه على ذلك أنصاره فكان مما قالوه له : « **ما ننتظر بالخروج ! والله ما نجد في هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك ! ما يمنعك أن تخرج وحدك** » .

كان (محمد) يرغب في أن يحدد موعد انطلاقته للثورة عندما يكمل استعداداته ، كما كان يريد أن يتحرك هو وأخوه إبراهيم في وقت واحد ، ولكن إبراهيم أصيب (بالجدري) فاضطر إلى القعود ، كما أن المطاردة والملاحقة التي نظمها والي المدينة (رياح) لم تترك له خياراً ، فقد باتت حلقات التحريات تشتد يوماً بعد يوم ، وبات أي تأخير يتهدد (محمداً) بالفشل التام ، وبانصراف أنصاره من حوله ، فقرر الخروج ، وحدد موعداً لذلك . وما إن تسامع أهـل المدينـة المنورة بظهـور محمد حتى أسـرعوا إلى شـراء الطعـام ـ حتى باع بعضهم حلي نسائه ـ وبلغ أمير المدينة (رياحاً) أن محمداً قد تحرك إلى (المذاد ـ المذكر ـ) فركب في جنده ، يريده ، غير أنه لم يعثر عليـه ، ودخل وجنـده داره . وأما محمـد ، فإنـه لما علم بتحـرك (رياح) دخل داراً لجهينة ، وأغلق بابها عليه وعلى أنصاره . وقام رياح ، فاستدعى شيوخ المدينة وكبار رجالهـا ، حتى يبحث معهم الموقف . وبينما كان هؤلاء يجتمعون ، ارتفع صوت التكبير ، وفكر (رياح) وبعض من معه بضرب أعناق الهاشميين ممن جمعهم إليه ، فأنكروا أن يكون لهم علاقة بالثورة ، أو بحركة (محمد) ، فبـات (رياح) وهو على أسوأ حال .

لقد انطلق محمد بثورته .

* * *

٨ ـ ثورة محمد بن عبد الله ، ومقتله

جمع أمير المدينة المنورة (رياح بن عثمان بن حيان) شيوخ المدينة من بني هاشم وسواهم . ولما حضروا قال لهم : « إيهاً يا أهل المدينة ، أمير المؤمنين يطلب بغيته في شرق الأرض وغربها ، وهو ينتفق بين أظهركم ! أقسم بالله لئن خرج لا أترك منكم أحداً إلّا ضربت عنقه » . فقال له محمد بن عمران : « أصلحك الله ، أنا عذيرك منه ، هذا والله الباطل » . فأجابه رياح : « فأنت أكثر من هاهنا عشيرة ، وأنت قاضي أمير المؤمنين ، فادع عشيرتك » . فوثبَ محمد بن عمران ليخرجِ ، فقال له رياح : اجلسْ ، وأرسل رجلاً آخر استنفر بني زهرة ممَّن يسكن حش طلحة ودار سعد ودار بني أزهر ، فحضروا مع أسلحتهم ، وجاء إبراهيم بن يعقوب بن سعد بن أبي وقاص متنكباً قوساً ـ وكان من أرمى الناس ـ فلما رأى محمد بن عمران كثرتهم ، دخل على رياح وقال له : « هذه بنو زهرة في السلاح يكونون معك ، ائذن لهم » فأجاب رياح : « هيهات ! أتريد أن تدخل عليَّ الرجال ليلاً ، وهم في السلاح قل لهم فليجلسوا في الرحبة ، فإن حدث شيء فليقاتلوا » . فرجع محمد بن عمران إلى الناس ، وقال لهم : « قد أبىٰ أن يأذن لكم ،

لا والله ما هاهنا شيء ، فاجلسوا بنا نتحدث » . وجلسوا ينتظرون ما يفعله محمد بن عبد الله .

وكان (محمد بن عبد الله بن حسن) قد انطلق من المذاد ، ومعه مائتان وخمسون رجلاً ، وأخذت صيحات تكبيرهم تتردد في أرجاء المدينة ، فانتشر الرعب ، وحدثت مناوشة قتل فيها رجل من أصحاب محمد ، ثم استولى محمد على السجن ، وأخرج من كان فيه ، واستولى على بيت المال كما استولى على قصر الحكم وأمر بسجن رياح وابن مسلم ، فحبسا في دار ابن هشام . وأذن المؤذن لصلاة الصبح ، وتقدّم محمد فصلّى بالناس ، وقرأ : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً** ﴾[1] . وبعد الصلاة ، صعد المنبر ، فحمدَ الله وأثنىٰ عليه ثم قال : « أما بعد ، أيُّها الناس ، فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخفَ عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه ، وتصغيراً للكعبة الحرام ، وإنَّما أخذ الله فرعون حين قال : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمْ ٱلأَعْلَىٰ** ﴾[2] ، وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلّوا حرامك ، وحرّموا حلالك ، وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت . اللهم فأحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً . أيها الناس ! إني والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ، ولكني اخترتكم لنفسي ، والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلاّ وقد أخذ لي فيه البيعة » .

---

(١) سورة الفتح ـ الآية ١ ـ الجزء السادس والعشرون .

(٢) سورة النازعات ـ الآية ٢٤ ـ الجزء الثلاثون .

كان محمد - أو إبراهيم - قد أرسل رجلاً من بني ضبة للتجسس على المنصور، فجاءَ الرجل إلى المسيب - قائد شرط المنصور - وكان يمتّ إليه بصلة الرحم والقرابة. ولما عرف المسيب أمره، قال له: « لا بد من رفعك إلى أمير المؤمنين »، وأدخله على المنصور، فاعترف بمهمته، فقال له المنصور: « ما سمعته يقول ؟ » فأجاب الرجل:

منخرق السربال يشكو الوجَىٰ ... تنكُبُهُ أطراف مَرْوٍ حِدادْ
شرده الخوفُ فأزْرَىٰ به ... كذاك مَنْ يكرَهُ حَرَّ الجلاد
قد كانَ في الموت له راحةٌ ... والموتُ حتم في رقاب العباد

فقال له أبو جعفر: أبلغه أنا نقول:

وَخُطَّةِ ذُلٍّ نجعل الموت دونها ... نقول لها للموت أهلاً ومرحبا

فردَّ الرجل الضبي: أنطلقُ فأبلغه، ومضى راجعاً إلى المدينة.

* * *

ما إن أعلن (محمد بن عبد الله بن حسن) ثورته في المدينة المنورة، حتى غادرها رجل من آل أويس ابن أبي سرح من بني عامر بن لؤي، وسار تسعاً حتى وصل بغداد ليلاً، فطرقها، فصاح حتى أدخل المدينة، ووقف بباب المنصور، فخرج إليه الربيع - وزير المنصور - وقال له: « ما حاجتك هذه الساعة، وأمير المؤمنين نائم؟ ». فقال الرجل: « لا بد لي منه » فقال له الربيع: « أعلمنا نعلمه ». فأبىٰ، فدخل الربيع على المنصور، فأعلمه، فقال له المنصور: « سلْه عن حاجته ثم أعلمني » فردَّ الربيع:

«أبى الرجل إلاَّ مشافهتك» . فأذن له ، فدخل عليه ، فقال : «يا أمير المؤمنين ! خرج محمد بن عبد الله بالمدينة» فردَّ المنصور على الفور : «**قتلته والله إن كنت صادقاً ! أخبرني من معه**» . فسمَّى له من خرج معه من وجوه أهل المدينة وأهل بيته ، فسأله المنصور : «أنت رأيته وعاينته ؟» فأجابَ الرجل : «أنا رأيته ، وعاينته ، وكلّمته على منبر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم جالساً» ، فأدخله أبو جعفر بيتاً . فلما أصبح ، جاءه رسول لسعيد ابن دينار غلام عيسىٰ بن موسىٰ كان يلي أموال عيسىٰ بالمدينة ، فأخبره بأمر محمد ، وتواترت عليه أخباره ، فأخرج الأويسي وقال له : «لأوطئنَّ الرجال عقبيك ، ولأغنينك» وأمر له بتسعة آلاف ، لكل ليلة سارها ألفاً . وقال المنصور : «**استخرجت الثعلب من جحره**» . **وكان أبو جعفر المنصور يكتب على ألسن قواده ، يدعونه إلى الظهور ، ويخبرونه أنهم معه ، فكان محمد يقول : لو التقينا مال إليّ القواد كلهم** .

ما إن علم أبو جعفر المنصور ظهور محمد بن عبد الله في المدينة حتى كتبَ إليه :

«بسم الله الرَّحمٰن الرحيم ، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَه وَيَسْعَونَ في الأَرْض فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّع أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفُوا مِنَ ٱلأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عليهِم فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] ولك عليّ عهد الله وميثاقه وذمته

---

(1) سورة المائدة ـ الآيتان ٣٣ و ٣٤ .

وذمة رسوله صلى الله عليه وسلَّم إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتَّبعك أو دخل معك في شيء من أمركِ ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً . فإن شئت أن تتوثق لنفسك ، فوجه إليَّ من أحببت ، يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به » . **وكتب على العنوان** : « **من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله** » . **فكتب إليه محمد بن عبد الله** :

« بسم الله الرَّحمٰن الرحيم . من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله ، إلى عبد الله بن محمد : ﴿ طَسٓمٓ ۞ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِين ۞ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بالحَقِ لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ في ٱلأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنهُمُ يُذْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّه كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَمُنَّ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلهُمْ ٱلْوَارِثين ۞ وَنُمكِنَ لَهُمْ في الأَرْضِ وَنُري فِرْعَونُ وَهامَانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ مَا كانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[1] وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت عليَّ ، فإن الحق حقنا ، وإنَّما ادَّعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا . فإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ! ثم قد علمت أنه

---

(١) سورة القصص ـ الآيات ١ ـ ٥ .

لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء ، وليس يمت - يتوسل - أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل ، وإنَّا بنو أم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم. إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلَّى الله عليه وسلَّم ، ومن السلف أولهم إسلاماً علي ، ومن الأزواج أفضلهنَّ خديجة الطاهرة ، وأول من صلَّى القبلة . ومن البنات خيرهنَّ فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدي شباب أهل الجنة، وإن هاشماً ولد علياً مرتين[1] وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين[2] ، وإن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولدني مرتين من قبل حسن وحسين ، وإني أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أباً ، لم تعرق في العجم[3] ، ولم تنازع في أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي ، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة ، وأهونهم عذاباً في النار ، وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير أهل الجنة . ولك علي إن دخلت في طاعتي ، وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته ، إلَّا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك .

---

(١) يعني علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وعلياً زين العابدين بن الحسين ابن علي ابن أبي طالب .

(٢) يعني جده وأبا حده ، فهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

(٣) يعرض بالمنصور ، إذ كانت أمه أم ولد يقال لها سلامة - بربرية - .

وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً من قبلي ، فأي الأمانات تعطيني ؟ ! أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي ؟ ! أم أمان أبي مسلم الخراساني ؟! » .

فكتب إليه أبو جعفر المنصور :

« بسم الله الرَّحمٰن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغني كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جلَّ فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أباً ، وبدأ به في كتابه على الوالد الأدنى ، فقال جلَّ ثناؤه عن نبيّه يوسف عليه السلام : ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إِبْراهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، ولو كان اختيار الله لهنَّ على قدر قرابتهنَّ كانت آمنة أقربهنَّ رحماً ، وأعظمهنَّ حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضىٰ منهم ، واصطفائه لهم . وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها[1] الإسلام ، لا بنتاً ولا ابناً ، ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة ، رزقه عبد الله أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء ، قال الله عزَّ وجلّ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[2] . ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عزَّ وجلّ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

---

(١) ذكر الطبري أن أولادها هم : عبد الله أبو رسول الله ، والزبير وعبد الكعبة وعاتكة وبرة وأميمة ، وولد عبد المطلب إخوة ، وأمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو .

(٢) سورة القصص ـ الآية ٥٦ .

ٱلأَقْـرَبِين ﴾[1] فأنـذرهم ودعاهم ، فـأجابَ اثنـان أحـدهمـا أبي ، وأبى اثنـان أحـدهمـــا أبـوك ، فقـــطع الله ولايتهمـا منـــك ، ولم يجعل بينه وبينهما إلاَّ ولا ذمة ولا ميزاثاً . وزعمتَ أنـك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسيـر ، وليس في الشر خيـار ، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلـم : ﴿ وَسَيعلَم ٱلَّذين ظَلمُـوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبونَ ﴾[2] .

وأما ما فخرت به من فاطمة أم علي وأن هاشماً ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبـد المطلب ولـده مرتين ، وأن النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لم يلده هاشم إلاَّ مرة ، ولا عبد المطلب إلاَّ مرة .

وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً ، وأصرح أماً وأباً ، وأنه لم تلدك العجم ، ولم تعـرق فيـك أمهـات الأولاد ، فقـد رأيتـك فخرت على بني هاشم طراً ، فانـظر ، ويحك ، أين أنت من الله غداً ! . . . فقد تعديـت طورك ، وفخـرت على من هو خيـر منك نفساً وأباً وأولاً وآخراً ، إبراهيم بن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى والد والده[3] وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلاَّ بنو أمهات أولاد ؟ . . . وما وُلد فيكم بعد وفاة رسول الله صلَّى الله

---

(١) سورة الشعراء ـ الآية ٢١٤ .

(٢) سورة الشعراء ـ الآية ٢٢٧ .

(٣) أم ابراهيم هي مارية القبطية التي أهـداها المقوقس عظيم القبط في مصر إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

عليه وسلَّم أفضل من علي ابن حسين ، وهو لأم ولد[1] ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي ، وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد ، ولهو خير منك .

وأما قولك : إنكم بنو رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فإن الله تعالىٰ يقول في كتابه : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾[2] ولكنكم بنو بنته ، وإنها القرابة قريبة ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ؟! ولقد طلبها أبوك بكل وجه ، فأخرجها ـ أعلنها ـ نهاراً ، وقرضها سراً ، ودفنها ليلاً ، فأبىٰ الناس إلاَّ الشيخين وتفضيلهما ـ أبي بكر وعمر ـ ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون .

وأما ما فخرت به من علي وسابقته ، فقد حضرت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ـ وفي الناس ـ ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها . وأما عبد الرحمٰن ـ بن عوف ـ فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بن أبي وقاص بيعته وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها ، وتفرّق عنه أصحابه ، وشكَّ فيه شيعته قبل الحكومة ـ التحكيم ـ ثم حكم

---

(١) أم علي زين العابدين ، سبية من بنات يزدجرد .

(٢) سورة الأحزاب ـ الآية ٤٠ .

حكمين رضي بهما ، وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه .

ثم كان حسن ، فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله . وأخذ مالاً من غير ولائه ولا حله ، فإن كان لكم في الخلافة شيء ، فقد بعتموه وأخذتم ثمنه .

ثم خرج عمك حسين بن علي على ابن مرجانة ـ عبيد الله ابن زياد ـ فكان الناس معه عليه حتى قتلوه ، وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بني أمية ، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيىٰ بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ، وحملوكم بلا وطاء في المحافل كالسبي المجلوب إلى الشام[1] حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنينا سلفكم وفضلناه ، فاتَّخذت ذلك علينا حجة .

وظننت أنا إنَّما ذكرنا أباك وفضَّلناه للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننتَ ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم ، مجتمعاً عليهم بالفضل ، وابتلي أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له ، وذكرناهم فضله ، وعنفناهم ،

---

(١) الوطاء : المهاد الوطيء . والمحمل : شقان على البعير ، يحمل فيهما العديلان ، وجمعه محامل . في الكامل : (ثم أتوا بكم على الأقتاب من غير أوطئة كالسبي المجلوب ـ الكامل للمبرد (٤/١١٦ ـ ١٢٠) وانظر تاريخ الطبري ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ـ أحداث سنة ١٤٥ للهجرة .

وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، فقضىٰ لنا عليه عمر ، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرّب إليه ، إلاَّ بأبينا ، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به .

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم غيره ، فكان وراثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلاَّ ولدُه ؛ فالسقاية سقايته وميراث النبيّ له ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلاَّ والعباس وارثه ومورثه .

وأما ما ذكرت من (بَدْر) فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليهم للأزمة التي أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كارهاً لمات طالب وعقيل جوعاً ، وللحسا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدىٰ عقيلاً يوم بدر ، فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحُزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا لأنفسكم ! والسلام عليك ورحمة الله » .

* * *

كان مالك بن أنس في المدينة المنورة ، يوم أعلن محمد بن عبد الله ثورته ، وجاء الناس إلى (مالك) يستشيرونه ويستفتونه

للخروج مع محمد ، وقالوا له : « إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر » فأجاب مالك : « إنَّما بايعتم مكرهين ، وليس على كل مكره يمين » فأسرع الناس إلى محمد ، ولزم مالك بيته .

وأرسل محمد إلى إسماعيل بن عبد الله بن جعفر فدعاه إلى البيعة ، وأجاب اسماعيل : « يابن أخي ! أنت والله مقتول فكيف أبايعك ؟ ! » فارتدع الناس عنه قليلاً . وجاء محمد بن خالد القسري إلى محمد بن عبد الله وبايعه ، وقال له : « يا أمير المؤمنين ! إنك قد خرجت في هذا البلد ، والله لو وُقف على نقب من أنقابه مات أهله جوعاً وعطشاً ، فانهض معي ، فإنَّما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف » ، ولكن محمداً رفض هذا الاقتراح وصمَّم على البقاء في المدينة ، ووجه ولاته إلى مكة المكرمة وإلى اليمن وإلى بلاد الشام .

وسار موسىٰ بن عبد الله مع مولاه رزام إلى الشام ومعهما جماعة ، فلما وصلَ رزام إلى تيماء (وقيل دومة الجندل) تخلف عن جماعته ، وسارَ إلى العراق . وأما موسىٰ ، فلم يلبث أن كتب إلى محمد : « إني أخبرك أني لقيت الشام وأهله ، فكان أحسنهم قولاً الذي قال : « والله لقد مللنا البلاء ، وضقنا به ذرعاً ، حتى ما فينا لهذا الأمر موضع ولا لنا به حاجة . ومنهم طائفة تحلف: لئن أصبحنا من ليلتنا أو مسينا من غد ، ليرفعنَّ أمرنا وليدلنَّ علينا . فكتبت إليك ، وقد غيبت وجهي وخفت على نفسي » ورجع موسىٰ قبل أن يصل إلى الشام ، فأتىٰ البصرة .

وأرسل محمد إلى نافع بن ثابت ، فلما جاءه قال له : « يا أبا عبد الله ، لم أرك جئتنا ! » . فأجابه نافع : « ليس فيَّ ما تريد »

فألحَّ عليه محمد حتى قال له نافع : « إني والله ما أراك في شيء ، خرجت في بلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح ، وما أنا بمهلك نفسي معك ، ولا معين على دمي » فقال له محمد : « انصرف ! فلا شيء فيك بعد هذا ! » .

كان ذلك هو الموقف بصورته العامة ، في المدينة المنورة ، أما على الجبهة المقابلة ، فعندما علم أبو جعفر المنصور بثورة محمد بن عبد الله ، وخروجه على طاعته ، ندب (عيسى بن موسى) لقتال محمد ، وقال : « لا أبالي أيهما قتل صاحبه ! » وضم إليه أربعة آلاف من الجند ، ثم دعا (جعفر بن حنظلة البهراني) إذ كان أعلم الناس بالحرب ، وكان ممن شهد مع مروان بن محمد ـ آخر خلفاء بني أمية ـ حروبه ، فقال له : « يا جعفر ! قد ظهر محمد ، فما عندك ؟ » فسأله جعفر البهراني : « وأين ظهر ؟ » فأجابه المنصور : « بالمدينة » فقال البهراني : « احمدالله ، ظهر حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح ولا كراع ، ابعث مولى لك تثق به فليسر حتى ينزل بوادي القرى ، فيمنعه ميرة الشام ، فيموت مكانه جوعاً » ففعل ، وأرسل ـ كثير ابن حصين العبدي ، فعسكر بفَيْد ، وخندق عليه خندقاً ، حتى قدم عيسى بن موسى .

وعندما أنهى المنصور استعداداته ، أمر عيسى بن موسى بالتحرك نحو المدينة المنورة ، وأوصاه بقوله : « إني أبعثك إلى ما بين هذين ـ وأشار إلى جنبيه ـ فإن ظفرت بالرجل فشم سيفك ، وابذل الأمان ، وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به ، فإنهم يعرفون مذاهبه » . ثم كتب المنصور إلى عيسى بن موسى : « من لقيك من آل أبي طالب ، فاكتب إلي باسمه ، ومن لم يلقك فاقبض ماله » .

سار عيسى بن موسى حتى إذا وصل (فَيْد) كتب إلى رجال من

أهل المدينة ، فلما وردت كتبه المدينة ، تفرق ناس كثير عن محمد ابن عبد الله .

اقترب عيسى بن موسى بقواته من المدينة المنورة ، فصعد محمد بن عبد الله المنبر ، فقال : « يا أيها الناس ! إنا قد جمعناكم للقتال ، وأخذنا عليكم المناقب ، وإن هذا العدو منكم قريب ، وهو في عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده ، وإنه قد بدا لي أن آذن لكم ، وأفرج عنكم المناقب ، فمن أحب أن يقيم أقام ، ومن أحب أن يظعن ظعن » ، فتسلل الناس حتى لم يبق مع محمد بن عبد الله إلا شرذمة ليست بالكثيرة .

وأرسل عيسى بن موسى إلى محمد بالأمان على نفسه وماله وأتباعه ، عملاً بوصية المنصور ، فرفض محمد إلا القتال . واقتحم جند المنصور المدينة ، وقتل محمد بن عبد الله ، وبعث (عيسى بن موسى) بعدد من الألوية وضعت على عدد من بيوتات كبار رجال المدينة حتى إذا دخلها الناس كانوا آمنين . وانفض الناس ، وأصبحوا هادئين في أسواقهم ، وكأن شيئاً لم يكن ، وكأن المدينة المنورة لم تجتاحها جائحة الفتنة .

وأصدر المنصور أمره برد أموال محمد بن عبد الله بن حسن إلى ورثته وكتب رسالة جاء فيها : « لقد رددت عليهم أموالهم صلة لأرحامهم وحفظاً لقرابتهم » . وكان أبو جعفر يقول : « لو وجدت ألفاً من آل الزبير كلهم محسن وفيهم مسيء واحد لقتلتهم جميعاً ، ولو وجدت ألفاً من آل عمر كلهم مسيء وفيهم محسن واحد لأعفيتهم جميعاً »

***

٩ ـ ثورة ابراهيم بن عبد الله ومقتله

لم تكن ثورة محمد بن عبد الله في المدينة المنورة إلا مقدمة لثورة أخيه ابراهيم في (البصرة) ، وكانت هذه الثورة أكثر تهديداً وأشد خطراً على أبي جعفر المنصور من سابقتها ، ذلك لأنها كانت أكثر قرباً من مقر الدولة العباسية وعاصمتها ، ولأنها كانت فوق أرض طالما تمخّضت بالثورات المتتالية التي قادها الشيعة والخوارج ، منذ ظهور الاسلام ، علاوة على اتصالها الوثيق بمهد الثورات في بلاد فارس (خراسان والأهواز) . ولهذا فليس غريباً أن تأخذ هذه الثورة من اهتمام المنصور ما لم تأخذه غيرها من الأحداث والثورات . وفي الواقع فإن المنصور لم يكن غافلاً أو متجاهلاً لهذا الخطر القريب ، الأمر الذي ساعده على التعامل مع الثورة بكفاءة عالية ، ومقابل ذلك فقد ارتكب قائد الثورة (ابراهيم بن عبد الله) من الأخطاء ، ما أسهم بدوره في فشل الثورة .

كان أبو جعفر المنصور ، منذ أن تولى الخلافة ، حذراً من ولدي الحسن (محمد وإبراهيم) وفقاً لما سبق عرضه والإشارة إليه ، ولهذا فقد عاش (إبراهيم) حياة التشرد والتنكر طوال الفترة ما بين خلافة المنصور واعلان الثورة ، وقد تحدثت زوجة إبراهيم بن

عبد الله بن حسن عن هذه الفترة فقالت : « نزل إبراهيم في البصرة وكان لا يُرى في النهار ، ووالله ما أقرتنا الأرض منذ خمس سنين ، مرة بفارس ، ومرة بكرمان ، ومرة بالحجاز ، ومرة باليمن » . وذكر ابراهيم أيضاً هذه الفترة فقال : « كان المنصور قد أمر بإذكاء العيون ـ الجواسيس ـ ووضع المراصد والمسالح ، واضطرني الطلب بالموصل حتى جلست على موائد أبي جعفر ، وذلك أنه قدمها يطلبني ، فتحيّرت ، فلفظتني الأرض ، فجعلت لا أجد مساغاً ، ووضع الطلب والمراصد ، ودعا الناس إلى غدائه ، فدخلت فيمن دخل ، وأكلت فيمن أكل ، ثم خرجت وقد كف الطلب » .

وكان لإبراهيم بدوره شبكة من الجواسيس ـ العيون ـ تحميه وتتستر عليه ، وتؤمن له اتصالاته وتحركاته ، وقد استطاع بذلك الوصول إلى معسكر المنصور ، والدخول إليه ، وعلم المنصور بذلك ، فاستدعى إليه قائد شرطته ـ المسيب ـ وقال له : « قد والله رأيت إبراهيم في عسكري ، وما في الأرض عدو أعدى لي منه ، فانظر ما أنت صانع ! » .

غير أن إبراهيم استطاع في كل مرة التماس طريق النجاة من أمام مطارديه ، حتى جاءه يوماً (عفو الله بن سفيان) فوجده مرعوباً ، فأعلمه أن أخاه محمداً قد ظهر في المدينة المنورة ، وأنه يطلب إليه الخروج ـ اعلان التمرد والثورة ـ فوجم ابراهيم من ذلك واغتم له ، وقال عفو الله بن سفيان : « فجعلت أسهل عليه الأمر ، وأقول له : قد اجتمع لك أمرك ، معك كبار القوم ، وأنا وجماعة ، فنخرج إلى السجن في الليل فنفتحه ، فتصبح حين تصبح ومعك عالم من الناس» فطابت نفسه .

عندما أعلن محمد ثورته في المدينة المنورة ، استدعى أبو

جعفر المنصور لمقابلته رجلاً عرف بالدهاء ومعاناة الحرب (هو جعفر بن حنظلة البهراني) فقال له : « قد ظهر محمد بالمدينة ، فهات رأيك » فأجاب جعفر : « وجه الأجناد إلى البصرة » فقال له المنصور : « انصرف حتى أرسل لك » . فلما علم المنصور أن إبراهيم قد استقر بالبصرة ، عاد فاستدعى إليه جعفر وقال له : « قد صار إبراهيم إلى البصرة » فأجاب جعفر : « إياها خفت ! بادره بالجنود » فسأله المنصور : « وكيف خفت البصرة ؟ ! » . فأجاب جعفر : « لأن محمداً ظهر بالمدينة ، وليسوا بأهل حرب ، بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم ، وأهل الكوفة تحت قدمك ، وأهل الشام أعداء آل أبي طالب . فلم يبق إلا البصرة » . . . وعاد المنصور فاستدعى بديل بن يحيى ـ وكان أبو العباس السفاح يستشيره في أمره ـ فلما جاء بديل قال له المنصور : « إن محمداً قد ظهر بالمدينة ، وصار إبراهيم في البصرة » فأجاب بديل : « عاجله بالجند ، واشغل الأهواز عنه ، فالأهواز بابهم الذي يؤتون منه » . وتابع المنصور استشاراته ، فقيل له : « . . . إن أهل الكوفة له شيعة ، والكوفة قدر تفور ، أنت طبقها ، فاخرج حتى تنزلها» وقال للمنصور شيخ من شيوخ الشام : « وجه إليه جنداً من أهل الشام . . . واكتب إلى عاملك عليها يحمل إليك في كل يوم عشرة على البريد » فكتب بذلك أبو جعفر .

وسار المنصور إلى الكوفة ، فأنزل جنده بالهاشمية ، ونزل هو بالرصافة في ظهر الكوفة ، وكان جميع جنده الذين في عسكره نحواً من ألف وخمسمائة ، لا أكثر ، فجزأ الجند نحو ثلاثة أجزاء ، خمسمائة خمسمائة ، فكان يطوف الكوفة كلها في كل ليلة ، وأمر منادياً فنادى : « من أخذناه بعد عَتمة فقد أحلّ نفسه » فكان إذا أخذ

رجلاً بعد عتمة ، لفه في عباءة وحمله ، فبيّته عنده ، فإذا أصبح سأل عنه ، فإن علم براءته أطلقه وإلا حبسه . ثم جاء جند الشام أرسالاً ، بعضهم على أثر بعض وكان المنصور يريد أن يروع بهم أهل الكوفة ، فإذا جنهم الليل في عسكره ، أمرهم فرجعوا منكبين عن الطريق ، فإذا أصبحوا دخلوا ، فلا يشك أهل الكوفة أنهم جند آخرون غير الأولين .

مكث إبراهيم في البصرة ، يفرق العمال في النواحي ، ويحشد القوى ، والمنصور يعمل بدوره على ارسال الجند ، وزيادة الضغط على البصرة ، وخاف إبراهيم أن يكثر جند المنصور فأعلن الثورة ، واستولى على البصرة ، واحتل بيت المال ومركز الحكم ، وطرد عامل المنصور على البصرة ، ووجد في بيت المال ألفي درهم وزعها على جنده ، فقوي بذلك ، وأرسل إلى الأهواز قوة طردت عامل المنصور منها ، واستولت عليها بعد معركة قصيرة وحاسمة ، كان النصر فيها لأصحاب ابراهيم ، رغم تفوق عامل المنصور في الأهواز بالقوى والوسائط ، ثم ما لبث إبراهيم أن بسط نفوذه على بلاد فارس ؛ فصارت البصرة والأهواز وفارس تحت حكم إبراهيم .

شاهد المنصور من قصره بالكوفة سفناً تحمل اناساً وهم يتجهون إلى البصرة ، فأرسل جنداً ، فأبادهم . وكان داود بن سليمان بالجزيرة ومعه قوة من ألفين مقاتل ، فلما علم المنصور بخروج ابراهيم في البصرة ، أرسل إلى داود يستدعيه ، فتحرك داود وقوته فلما كان (بباحمشا) اعترض له أهلها ، وقالوا له : « لا ندعك تجوزنا لتنصر أبا جعفر على إبراهيم » فقال لهم داود : « ويحكم ! إني لا أريد بكم سوءاً ؛ إنما أنا مارٌ فدعوني » . قالوا له : « لا والله ! لا تجوزنا أبداً » ، فقاتلهم وأبادهم ، وحمل منهم خمسمائة رأس ،

فقدم بها على أبي جعفر ، وقص عليه قصتهم ، فاستبشر المنصور ، وقال : « هذا أول الفتح ! » .

استمرت ثورة (محمد بن عبد الله) في المدينة المنورة زهاء سبعين يوماً ونيف ، لم تحدث خلالها اشتباكات عنيفة بين جند المنصور وجند إبراهيم في البصرة ، نظراً لالتزام إبراهيم بسياسة دفاعية ، ونظراً لعدم توافر قوى كافية لدى المنصور من أجل التعامل مع ثورة البصرة . . . وعندما تم القضاء على ثورة (محمد بن عبد الله) في المدينة المنورة ، وعلم ابراهيم بذلك ، فتّ من عضده ، وتدهورت روحه المعنوية ، واستشعر ريح الفشل ، فقد تصادف قدوم عيد الفطر (من سنة ١٤٥ للهجرة) بعد ثلاثة أيام من هزيمة محمد في المدينة المنورة ، فلما خرج إبراهيم للصلاة في الناس ـ صلاة العيد ـ نعى لهم أخاه محمد ، وعرف الناس فيه الانكسار ،حتى قال بعضهم :«قتل والله الرجل » .وهنا فقط ، قرر إبراهيم مغادرة البصرة والخروج لقتال أبي جعفر المنصور بالكوفة .

كان المنصور يفتقر للقوة ، فعندما علم بثورة إبراهيم في البصرة ، قال : « **والله ما أدري كيف أصنع ! والله ما في عسكري إلا ألفا رجل ، فرقت جندي ، فمع المهدي بالري ثلاثون ألفاً ، ومع محمد بن الأشعث بأفريقية أربعون ألفاً ، والباقون مع عيسى بن موسى ـ في المدينة المنورة ـ والله لئن سلمت من هذه لا يفارق عسكري ثلاثون ألفاً** » . ولكن إذا كان المنصور يفتقر للقوة ، فإنه لم يكن يفتقر للحيلة والعزيمة ؛ فقد خاف المنصور أن يطمع فيه عدوه إذا ما عرف قلة عدده : « فكان يأمر بالحطب ، فيحزم ، ثم يوقد بالليل ، فيراه الرائي ، فيحسب أن هناك ناساً ، وما هي إلا نار

تضرم ، وليس عندها أحد » .

وأرسل أبو جعفر إلى عيسى بن موسى وهو في المدينة ، وكان قد فرغ من القضاء على ثورة محمد بن عبد الله ، رسالة جاء فيها : « إذا قرأت كتابي هذا ، فأقبل ودع كل ما أنت فيه » ، فأسرع عيسى ابن موسى بالعودة إلى الكوفة .وكتب المنصور أيضاً إلى ابنه المهدي وهو يومئذ بالري ، يأمره بتوجيه خازم بن خزيمة إلى الأهواز ، فوجه المهدي أربعة آلاف من الجند ، فحاربوا جماعة ابراهيم وانتصروا عليهم ، واستباحوا الأهواز ثلاثة أيام . وجاء (سلم ابن قتيبة ابن مسلّم) من الري على رأس جيش ، فلما دخل (سلم) على المنصور ، قال له : « **اخرج ! فإنه قد خرج ابنا عبد الله ، فاعمد لإبراهيم ، ولا يروعنك جمعه ، فوالله إنهما جملا بني هاشم المقتولان جميعاً ، فابسط يدك ، وثق بما أعلمتك ، وستذكر مقالتي لك** » .

ومكث المنصور يتابع الموقف ، وقد وصف حاجب المنصور ـ السندي ـ ما كان عليه حال المنصور خلال هذه الفترة بقوله : « كنت وصيفاً أيام حرب محمد ، أقوم على رأس المنصور بالمذبة ، فرأيته لما كثف أمر إبراهيم وغلظ ، وقد أقام على مصلى نيفاً وخمسين ليلة ، ينام عليه ويجلس عليه ، وعليه جبة ملونة قد اتسخ جيبها وما تحت لحيته منها ، فما غيّر الجنة ، ولا هجر المصلى حتى فتح الله عليه ، إلا أنه كان إذا ظهر للناس ، علا الجبة بالسواد ، وقعد على فراشه ، فإذا بطن عاد إلى هيئته . وأتته (ريسانة) في تلك الأيام ، وقد أهديت إليه امرأتان من المدينة ، إحداهما فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله ، والأخرى أَمة الكريم بنت عبد الله من ولد خالد بن أسيد بن أبي العيص ، فلم ينظر إليهما ، فقالت له

ريسانة : يا أمير المؤمنين ! إن هاتين المرأتين قد خبثت أنفسهما ، وساءت ظنونهما لما ظهر من جفائك لهما ، فنهرها المنصور وقال لها : « **ليست هذه الأيام من أيام النساء ، لا سبيل لي إليهما حتى أعلم : أرأس إبراهيم لي ، أم رأسي لإبراهيم** » .

لقد كان الموقف بالغ الخطورة ، غير أن المنصور كان على استعداد كامل للتعامل معه منذ البداية ؛ فعندما أعلن إبراهيم ثورته في البصرة ، أرسل محمد وجعفر ابنا سليمان كتباً إلى أبي جعفر يعلمانه بما حدث ، فوجه من فوره ما توافر لديه من قوات الفرسان ، وكتب اليهما يعجزهما ويضعفهما ويوبخهما على طمع إبراهيم في الخروج إلى بلد هما فيه ، واستتار خبره عنهما حتى ظهر ، وأعلن ثورته . وكتب في آخر كتابه :

أبلغ بني هاشمٍ عني مُغَلْغَلَةً
فاستيقظوا إن هذا فعل نُوام
تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقي مربض المستنفر الحامي

وذكر (الحجاج بن قتيبة بن مسلم) ما شاهده من المنصور في تلك الأيام فقال : « دخلت على المنصور أيام حرب محمد وإبراهيم ، وقد جاءه فتق البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد ، وهو ينكث الأرض بمخصرته ويتمثل :

ونصبت نفسي للرماح دَريةً
إن الرئيسَ لمثل ذاك فعول

ثم قال لي المنصور : يا حجاج ! إن إبراهيم قد عرف وعورة

جانبي ، وصعوبة ناحيتي ، وخشونة قرني ، وإنما جرّأه على المسير إليّ من البصرة اجتماع هذه الكور ـ النواحي ـ المطلة على عسكر أمير المؤمنين وأهل السواد معه على الخلاف والمعصية ، وقد رميت كل كورة بحجرها ، وكل ناحية بسهمها ، ووجهت إليهم الشهم النجد الميمون المظفر ـ عيسى بن موسى ـ في كثرة من العدد والعدة ، واستعنت بالله عليه ، واستكفيته إياه ، فإنه لا حول ولا قوة لأمير المؤمنين إلا به » . وخرج الحجاج بن قتيبة من مجلس المنصور ، وقد ذهل لما شاهده من عزم لمنصور وثباته فقال : « لقد دخلت على أمير المؤمنين المنصور مسلماً ، وما أظنه يقدر على رد السلام لتتابع الفتوق والخروق عليه ، والعساكر المحيطة به ، ولمائة ألف سيف كامنة له بالكوفة بإزاء عسكره ، ينتظرون به صيحة واحدة فيثبون ، فوجدته صقراً ، أحوزياً ، مشمراً ، قد قام إلى ما نزل به من النوائب يعركها ويمرُسها ، فقام بها ولم تقعد به نفسه » .

بينما كان المنصور يمضي بثبات نحو هدفه ، كان إبراهيم ينحدر مدفوعاً بتناقضاته وتناقضات مستشاريه ؛ إذ نصحه بعضهم بمغادرة البصرة ومهاجمة المنصور بالكوفة بينما نصحه آخرون بالتزام الدفاع والبقاء في البصرة ، ونصحه بعضهم بتنظيم قواته على شكل كتائب ـ كراديس ـ ، بينما نصحه آخرون بالتزام تنظيم الصف ـ النسق ـ ، ونصحه بعضهم بحفر خندق حول مواقع قواته بينما نصحه آخرون بالاعتماد على الهجوم . . . الخ . . . ليس ذلك فحسب ، بل إن إبراهيم كان يفتقد للثقة بأنصاره ومقاتليه ، وقد خرج ليلة للتفتيش على معسكره ، فسمع أصوات طنابير وغناء ، فرجع وقال : « ما اطمع في نصر معسكر فيه مثل هذا » .

ضم معسكر ابراهيم مائة ألف من أهل البصرة.، ومقابل ذلك ،

لم يكن جند عيسى بن موسى يزيدون على خمسة عشر ألفاً ، وتم اللقاء بين القوتين المتصارعين في (باخمري) على بعد ستة عشر فرسخاً من الكوفة ، ودارت معركة عنيفة خرج منها ابراهيم منتصراً ، وتمزقت قوات عيسى بن موسى شر ممزق ، وولت منهزمة . غير أن عيسى بن موسى وقائد مقدمته ـ حميد بن قحطبة ـ نجحا في إعادة تنظيم القوات وجمعها ، وأمكن شن هجوم ثانٍ ، انتصر فيه جند المنصور ، وقتل ابراهيم ، واحتز رأسه ، وأرسل إلى الخليفة المنصور . فلما رأى المنصور رأس إبراهيم بين يديه ، بكى حتى قطرت دموعه على خد ابراهيم ، ثم قال : « **أما والله إن كنت لهذا كارهاً ، ولكنك ابتليت بي وابتليت بك** » . . .

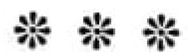
لما أتي برأس إبراهيم بن عبد الله ، وضعه المنصور بين يديه ، وجلس مجلساً عاماً ، وأذن للناس ، فكان الداخل يدخل فيسلم ، ويتناول ابراهيم فيسيء القول فيه ، ويذكر منه القبيح ، التماساً لرضا أبي جعفر ، وأبو جعفر ممسك متغير لونه ، حتى دخل (جعفر بن حنظلة البهراني) فوقف وسلم ، ثم قال : « **عظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك ، وغفر له ما فرط فيه من حقك !** » . فانشرحت أسارير أبي جعفر، وأقبل عليه ، فقال له : « أبا خالد ! مرحباً وأهلاً ! ها هنا » وأجلسه إلى جانبه ، فعلم الناس أن ذلك قد وقع منه ، فدخلوا فقالوا مثل ما قال جعفر بن حنظلة[1] .

---

(١) جاء في تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٤٥ هـ ـ أن المنصور عندما علم بانتصار عيسىٰ ابن موسىٰ ،وقتل ابراهيم بن عبد الله ، تمثل قول عبدون السلمي ـ أو سليم بن ثمامة الحنفي :

تذكرت من أم الحويرث بعدما مضت حجج وذو الشوق ذاكر
فألقت عصاها واستقرَّت بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافرُ

لقد حدثت خلال المعركة أزمة خطرة ، حتى أن المنصور أعد العدة للتوجه إلى الري فيما إذا انتصر إبراهيم ، وارتبط الخيول على بابه للهرب نحو الري ، غير أن قـواته نجحت في انتـزاع النصر . وبذلك استطاع المنصور القضاء على أخطر ثورات تهددت حكمه ، وحكم العباسيين عامة .



١٠ - من الحرب إلى الإعمار والبناء

عمل أبو جعفر المنصور عندما انتهت إليه الخلافة ، على بناء الهاشمية قبالة مدينة ابن هبيرة إلى جانب الكوفة ، كما بنى المنصور أيضاً مدينة بظهر الكوفة سمّاها الرُصافة . فلما ثارت الراوندية وأفسد أهل الكوفة جند أمير المؤمنين المنصور ، كره المنصور العودة لسكنى الهاشمية لقربها من الكوفة ، ولم يأمن أهلها على نفسه ، فأراد أن يبعُد من جوارهم ، وقال : « إنما أريد موضعاً يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي ، ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ، ولا تشتد فيه المؤونة ، فإني إن أقمت في موضع لا يُجلب إليه من البر والبحر شيء ، غلت الأسعار ، وقلّت المادة ، واشتدت المؤونة ، وشق ذلك على الناس» . وخرج المنصور بنفسه يرتاد موضعاً يتخذه مسكناً لنفسه وجنده ، ويبتني به مدينة ، فبدأ فانحدر إلى (جَرْجرايا) ثم صار إلى بغداد ، ثم مضى إلى الموصل ، ثم عاد إلى بغداد ، فعبر في موضع قصر السلام ، ثم صلى العصر ، وكان الفصل صيفاً ، وكان في موضع القصر بيعة قيس ، ثم بات ليلة حتى أصبح ، فبات أطيب مبيت في الأرض وأرفقه ، وأقام يومه فلم ير إلا ما يحب . فقال : « **هذا موضع معسكر صالح ، هذه دجلة ليست بينها وبين الصين شيء ، يأتينا فيها كل ما**

في البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك ، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك » .

وكان المنصور قد نزل الدير الذي هو حذاء قصره المعروف بالخلد ، فدعا بصاحب الدير ، وأحضر البطريق وصاحب بغداد وصاحب المخرم وصاحب الدير المعروف ببستان القس وصاحب العتيقة ، فسألهم عن مواضعهم ، وكيف هي في الحر والبردوالأمطار والوحول والبق والهوام ؟ فأخبره كل واحد بما عنده من العلم ، فوجه رجالاً من قبله ، وأمر كل واحد منهم أن يبيت في قرية منها ، فبات كل رجل منهم في قرية منها ، وأتاه بخبرها .

وشاور المنصور الذين أحضرهم ، وتحرى أخبارهم ، فاجتمع اختيارهم على صاحب بغداد ، فأحضره وشاوره وساءله ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! سألتني عن هذه الأمكنة ، وطيبها ، وما يختار منها ، فالذي أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيج ـ نواحي ـ في الجانب الغربي ناحيتين هما قطربل وبادورَيا وفي الجانب الشرقي ناحيتين هما نهر بوق وكلواذي ، فأنت تكون بين نخل وقرب الماء ؛ فإن أجدبت ناحية وتأخرت عمارتها ، كانت العمارات في الناحية الأخرى . وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ، تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات ، وتجيئك طرائف مصر والشام ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها في تأمَرا حتى تصل إلى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة ، وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل إليك عدوك . وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى

العبور ، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل » .

ازداد المنصور عزماً على النزول بموضع بغداد ، ووضع أول لبنة بيده ، وقال : « **بسم الله الرحمن الرحيم . والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين** » ثم ضرب عسكره على الصراط ، وخط المدينة ، ووكل بكل رُبع قائداً ، ثم قال : ابنوا على بركة الله .

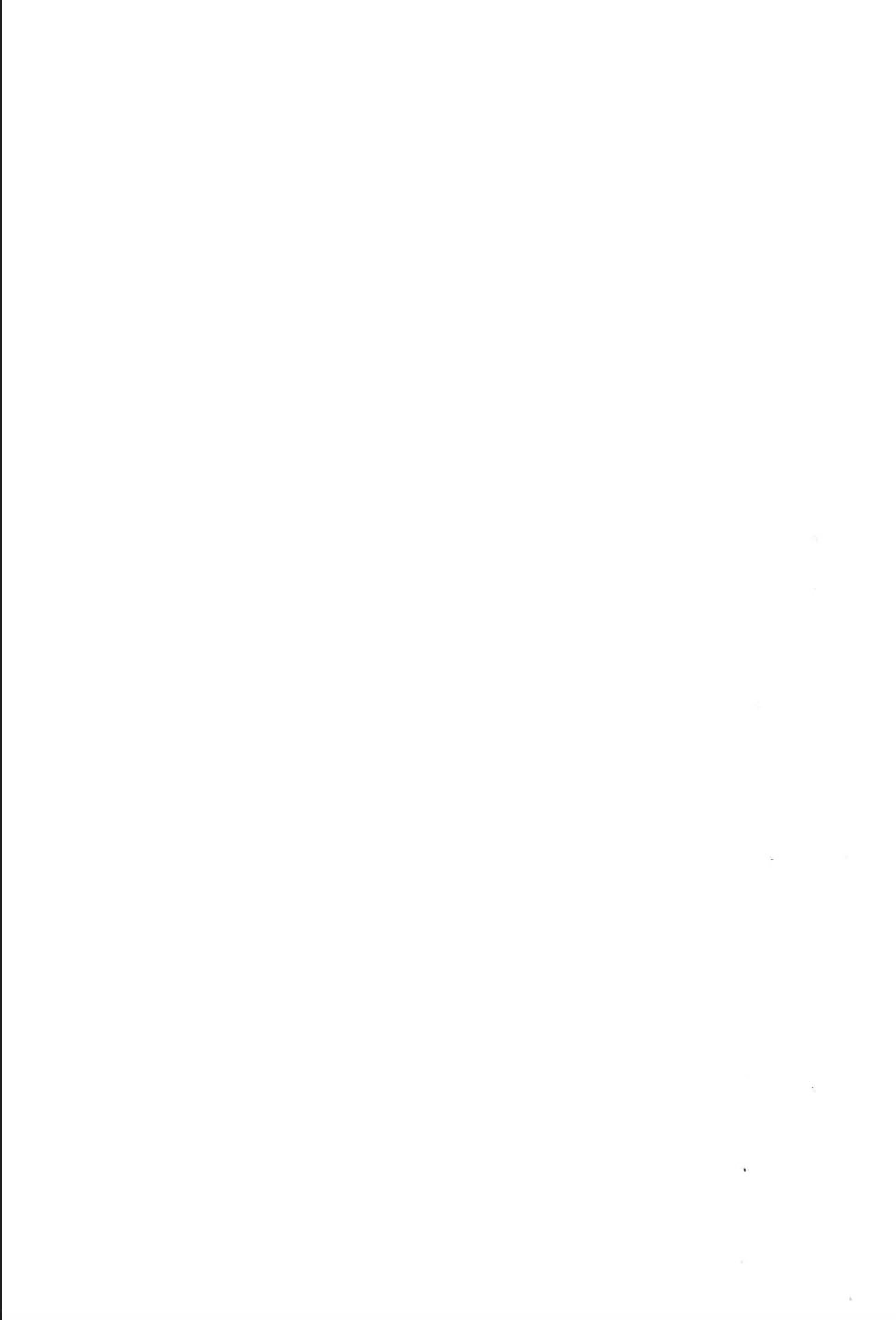
أمر المنصور بحشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة ، فأحضروا وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة ، فكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت . وأراد المنصور تعيين أبا حنيفة على القضاء ، فامتنع من ذلك ، فحلف المنصور أن يتولى له ، وحلف أبو حنيفة ألا يفعل ، فولاه القيام ببناء المدينة وضرب اللبن وعدِّه ، وأخذ الرجال بالعلم .

أمر المنصور أن يخط بالرماد ، حتى ينظر إلى مخطط بناء المدينة عياناً ، ثم أقبل يدخل من كل باب ، ويمر في فصلانها وطاقاتها ورحابها ، ودار عليهم ينظر إليهم وإلى ما خط من خنادقها ، فلما انتهى من ذلك أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ، ويصب عليه النفط ، فنظر إليها والنار تشتعل ، ففهمها وعرف رسمها . وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم ، وضرب اللبن وطبخ الأجر ، فبديء بذلك ، وكان أول ما ابتديء به عملها سنة خمس وأربعين ومائة .

وما كاد المنصور ينتهي من تخطيط بناء بغداد ، حتى وردته

أنباء الثورة في المدينة المنورة ، ثورة محمد بن عبد الله ، فنادى المنصور بالرحيل من ساعته حتى قدم على الكوفة . فلما كانت سنة ست واربعين ومائة ، وفرغ المنصور من القضاء على ثورة محمد وأخيه ابراهيم بن عبد الله ، عاد لمتابعة بناء مدينة بغداد . واحتاج البناء إلى الأنقاض ، فاستدعى المنصور اناساً لأخذ رأيهم ، وكان خالد بن برمك فيمن استشارهم ، فقال له المنصور : « ما ترى في نقض بناء مدينة ايوان كسرى بالمدائن ، وحمل نقضه إلى مدينتي هذه ؟ » فأجاب خالد : « لا أرى ذلك يا أمير المؤمنين ! » فسأله المنصور : « ولم ؟ ! » فأجاب خالد : « لأنه علم من أعلام الاسلام ، يستدل به الناظر إليه أنه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا ، وإنما هو على أمر دين ، ومع هذا يا أمير المؤمنين ، فإن فيه مصلى علي بن أبي طالب صلوات الله عليه » فقال له المنصور : « هيهات يا خالد ! أبيت إلا الميل إلى أصحابك العجم ! » . وأمر أن ينقض القصر الأبيض ، فنقضت ناحية منه ، وحمل نقضه ، فنظر في مقدار ما يلزمهم للنقض والحمل فوجدوا ذلك أكثر من ثمن الجديد لو عمل ، فرفع ذلك إلى المنصور ، فدعا بخالد بن برمك ، فأعلمه ما يلزمهم في نقضه وحمله ، وقال له : « ما ترى ؟ » فأجاب خالد : « يا أمير المؤمنين ! قد كنت أرى قبل ألا تفعل ، فأما إذ فعلت ، فإني أرى أن تهدم الآن حتى تلحق بقواعده ، لئلا يقال : إنك عجزت عن هدمه » . فأعرض المنصور عن ذلك ، وامتنع عن متابعة هدمه ، ولم يأخذ برأي خالد بن برمك لا في المرة الأولى ولا في المرة الثانية .

وانتهى بناء بغداد ، وانتقل إليها المنصور ، وأصبحت عاصمة له ، وتوارثها العباسيون من بعده ، فازدهرت ، وأصبحت عاصمة الدنيا . لقد مضى المنصور ، وبقيت بغداد تذكر بانيها .



« تدين الدولة العباسية للمنصور بـالقواعـد التي قامت عليها حكومتها . والواقع أنه احتفظ في الأعم الأغلب بنـظام العمل الـذي جرّبـه الأمويـون من قبل »

تاريخ الشعوب الاسلامية ـ ١٧٩ .

الفصل الثاني

١ ـ المنصور وادارة الحرب .

٢ ـ المنصور وعبد الرحمن الداخل .

٣ ـ قصة المنصور مع الخراساني .

٤ ـ قضية الخلافة .

٥ ـ قتال الزيدية والاباضية والصفرية .

٦ ـ الجهد المستمر لبناء الدولة .



١ ـ المنصور وادارة الحرب

يظهر العرض السابق أن الجهد الأكبر لأمير المؤمنين أبي جعفر المنصور قد تركز على تثبيت دعائم الدولة العباسية ، وقد يكون ذلك أمراً طبيعياً ، ذلك أنه من المحال مجابهة الخطر الخارجي ، أي خطر ، يتطلب جبهة داخلية قوية ومتماسكة . وكانت هذه الجبهة تعيش حياة الاضطراب المستمر ، بسبب النزاع بين (بني العباس) و (بني هاشم) ؛ فقد جمع الحقد ضد (بني أمية) أبناء العمومة من عباسيين وهاشميين ، ولكن هذا الاتفاق المرحلي ما لبث أن تفجر بعنف وقوة ، ولقد كان لكل طرف قواعده وأنصاره . وكانت هذه القواعد واولئك الأنصار هي الأرضية المشتركة للطرفين مما كان يزيد من صعوبة الصراع على الجبهة الداخلية ، ويضيف إلى شدة تعقيداتها تعقيدات صعبة .

وقد برهن المنصور على ما توافر له من كفاءة عالية في التعامل مع مثل هذه الظروف ، سواء بفضل معرفته للرجال ، أو بفضل قوة شخصيته وما تميز به من الحزم والجرأة ، أو بفضل حرصه الدائم على استباق الأحداث، وإعداد الظروف المناسبة للعمل . لكن ذلك لا يعني عدم تعرض المنصور (للمباغتة) رغم توقعه للأحداث ، ذلك

أن الطرف المقابل كان يمارس بدوره اللعبة ذاتها ، على الأرضية ذاتها ، فكان حوار الإرادات المتصارعة صعباً ومريراً . وكان من المحال في هذه الحرب اللجوء إلى العنف الأقصى ، أو ممارسة حرية العمل العسكري بصورة كاملة ـ لا سيما خلال مرحلة الصراع الصامت الذي يسبق اعلان الثورة ، أو خلال المرحلة التالية لانهاء الصراع المسلح ـ إذ أن تصعيد العنف إنما يعني تدمير القواعد الذاتية ، وتدمير القدرة الذاتية . فكان لزاماً عدم تجاوز حدود مسارح العمليات القتالية في استخدام العنف ، كما كان لزاماً عدم تجاوز إنزال العقاب برؤوس الفتنة ، وتوسيع دائرة العفو لتشمل اكبر عدد من الذين كانوا وقوداً للفتنة .

لقد وصف المنصور ـ أحياناً ـ بالغدر ، وعدم الوفاء ، والنكث بالعهد ، ومثال ذلك موقفه من أبي مسلم الخراساني . وهنا يمكن التساؤل : هل كان باستطاعة المنصور الانتظار طويلاً حتى تتفاقم الفتنة وحتى يشتد الخطر ؟ أم كان من الأفضل القضاء على الفتنة في مهدها ؟ من المحتمل أن تكون الشبهة مجالاً للظلم ، ولكن هل كان المنصور يحاسب على الشبهة ويأخذ بالظن ؟ أم كان يتبع مختلف الطرائق ويستخدم الأساليب المتنوعة حتى يتحول الشك إلى يقين وحتى تتحول الشبهة إلى إدانة ؟ . . . وفي هذه الحالة ، ألم يكن القضاء على فرد ، مهما كانت مكانته ومهما بلغت مرتبته ، هي وقاية لهيبة الدولة وحقناً لدماء المسلمين من أن تهرق في صراعات عقيمة ؟ . . .

لقد أبرزت مسيرة الأحداث ـ في الفصل السابق ـ أن المنصور لم يكن ليتسرع في أحكامه ، وكان يبني أحكامه على قناعات ثابتة ، وبراهين أكيدة ؛ تجنباً للظلم ، وحفظاً لهيبة الدولة وصيانة لدماء

المسلمين وأرواحهم . وبالرغم من ذلك ، فإن البلاد لم تعرف الهدوء أو الاستقرار ؛ لا تكاد فتنة تخمد حتى تعقبها فتنة أشد عنفاً وأكثر قوة ، ولا تكاد ثائرة تهدأ حتى تتبعها ثائرة أوفر قدرة وأشد اتساعاً . لقد كان ذلك أمراً طبيعياً ومتوقعاً ، ويمكن هنا التمييز بين ثلاثة أنواع من الفتن والاضطرابات :

أولاها : ما نجم من صراع بين الأمويين والعباسيين ، وما أعقب ذلك من جراحات عميقة .

وثانيتها : ما نجم من صراع بين العباسيين والهاشميين ، وما ترك ذلك من أثر كبير في المجتمع الاسلامي .

وثالثتها : ما نجم من صراع بين العباسيين ومراكز القوى في المشرق (الفرس وأهل خراسان) .

وقد يكون من المناسب أن يضاف إلى ذلك بعض الثورات الطارئة ، والتي نجمت عن استثارات مباغتة وغير متوقعة (مثل وثوب السودان بالمدينة المنورة في أحداث سنة خمس وأربعين ومائة)،(ومثل الفتنة بأفريقية مع الخوارج في أحداث سنة ست وخمسين ومائة) .

لم تكن إدارة الحرب واحدة في مواجهة الأنواع المختلفة من الفتن والاضطرابات، فبينما يظهر المنصور بصورة الخليفة المتسامح ، الكريم ،تجاه جمهور الثائرين من أنصار بني عمومته ، تراه بعد ذلك يظهر متشدداً صلباً في حروبه ضد المنحرفين ؛ فقد بقيت بلاد فارس موطناً للملل والنحل ، ولهذا فعندما قام (الراوندية) بثورتهم ، أخذ الصراع شكلاً دموياً وحاداً ، إذ كان من المفروض التعامل مع المنحرفين عن الدين كمثل اسلوب التعامل مع المرتدين

في الردة الأولى ـ أيام الخليفة أبي بكر رضي الله عنه ـ بهدف القضاء على الأفكار المنحرفة ، والآراء الضالـة المضللة ، والتي ما فتئت أرض خراسان (فارس) تتمخض عنها . فالعملية هنا عملية صراع عقائدي فكري يتجاوز حدود الصراع على السلطة ، وهو صراع يتعلق بالاسلام وأهله ، ولم يكن باستطاعة المنصور التهاون في أمر يتعلق بـالدين[١] .

لقد استطاعت الحروب الأهلية اضعاف قدرة الدولة ، فصرفت المنصور عن تركيز الجهد ضد العدو الخارجي ، ويمكن ملاحـظة ذلك من خلال متابعة الحوليات .

---

(١) لقـد كانت الـراوندية تعبيراً عن الانحـراف الذي ظهـرَ بـالقضـاء على أبي مسلم الخراساني ، غير أن القضاء على هذه الفئة لم يضع حداً نهائياً للانحراف ؛ ففي السنة التالية لوفاة المنصور ظهرت حركة (المقنع) والتي ورد ذكرها في الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ أحداث سنة تسع وخمسين ومائة بما يلي : « ظهر المقنع بخراسان ، وكان رجلاً أعور قصيراً ـ من أهل مـرو ـ ويسمىٰ حكيماً . وكـان اتَّخذ وجهـاً من ذهب فجعله على وجه لئلاَّ يُرى فسُمي المقنع ، وادَّعى الألـوهية ، ولم يـظهر ذلـك إلى جميع أصحابه ، وكان يقول : إن الله خلق آدم ، ثم تحول في صورته ثم في صورة نوح وهلم جرّا إلى أبي مسلم الخراساني ، ثم تحول إلى هاشم ، وهاشم في دعواه هو المقنع ، ويقول بالتناسخ ، وتابعه خلق من ضلال الناس ، وكانوا يسجدون له من أي النواحي كانوا ، وكانوا يقولون في الحرب : يا هاشم أعنا . واجتمع إليه خلق كثير ، وتحصنوا في قلعة بسيام وسنجرده وهي من رساتيق ـ نواحي ـ كش .

وظهرت المبيضة ببخارى والصغد ، معـاونين له ، وأعانه كفار الأتراك ، وأغاروا على أموال المسلمين وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم » وقـد حاربهم المسلمـون في بخارى (مـدينة بـومجكت) ، وسيّر المهـدي جيشـاً لمحاربتهم إلى أن قضى على ثورتهم .

الكامل في التاريخ ٥/ ٥٢ ـ ٥٣ .

ففي احداث سبع وثلاثين ومائة « لم يكن للناس صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ » .

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة : « خرج قسطنطين ملك الروم إلى بلاد الاسلام ، فدخل ملطية عنوة وقهراً ، وغلب أهلها ، وهدم سورها ، وعفا عمن فيها من المقاتلة والذرية ، فقام العباس بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس ومعه صالح بن علي وعيسى بن علي ، بغزو بلاد الروم - بالصائفة - وبنى صالح ما كان ملك الروم قد أخربه » . وفي السنة التالية (سنة تسع وثلاثين ومائة) فرغ صالح بن علي والعباس بن محمد من عمارة ما أخربه الروم من ملطية ، ثم غَزَوَا الصائفة من درب الحدث ، فوغلا في أرض الروم ، وغزت مع صالح اختاه أم عيسى ولبابة ، بنتا علي ، وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله ، وغزا من درب ملطية (جعفر بن حنظلة المهراني) .

ثم كان الفداء بين المنصور وملك الروم ؛ فاستفدى المنصور أسرى (قالي قالا - قليقية أو كيليكية) وغيرهم من الروم ، وبناها وعمرها ورد إليها أهليها ، وندب إليها جنداً من أهل الجزيرة وغيرهم ، فأقاموا بها وحموها . ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل إلاّ سنة ست وأربعين ومائة ، لاشتغال المنصور بحرب ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي - محمد وإبراهيم - . إلا أن بعضهم قال : ان الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام في سنة أربعين ومائة ، وأقبل قسطنطين ملك الروم في مائة ألف فبلغ جيحان ، فسمع كثرة المسلمين فأحجم عنهم ، ثم لم يكن بعدها صائفة حتى سنة ست وأربعين ومائة .

أفادت الأقوام المتاخمة لبلاد المسلمين من اضطراب الأوضاع الـداخلية ، للنيـل من المسلمين والنكايـة بهم ، ففي سنـة خمس وأربعين ومائة ، « خرجت الترك والخزر بباب الأبواب ـ باكو حاليـاً على بحر قزوين ـ فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة » . وفي سنة سبع وأربعين ومائة : « أغار استرخان الخوارزمي في جمع من الترك على المسلمين بناحية أرمينية وسبى من المسلمين وأهل الذمة خلقاً ، ودخلوا تفليس ، فسيّر المنصور إلى محاربة الترك جبرائيل بن يحيـى ، فقاتلهم وهزم جبرائيل وقتل من أصحابه خلق كثير» .

قد يكون العرض الوجيز السابق كافياً لابراز ملامح التحول في الصراع ضد العدو الخارجي ، بسبب الانصراف لمشكلات الجبهة الداخلية ، وهذا مما يبرز بدوره تلك العلاقة الثابتة بين القوة الداخلية والقوة الخارجية . فعندما تكون الجبهة القويـة متماسكـة داخلياً ، يتجنب أعداء الخارج الصدام معها أو التعرض لها ، في حين يغري ضعف الجبهـة الـداخليـة الاعـداء ويـدفعهم إلى إظهـار حقيقتهم والكشف عن نواياهم وأهدافهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فإن إدارة الحرب ضد العدو الخارجي قد أخذت في عهد المنصور شكلاً ثابتاً هو شكل (الحرب الـدفاعيـة) ؛ فأعمـال الـصوائف لم تكن تتجـاوز حـدود الاقـاليم الاسلامية ، ولم تكن واجباتها القتالية تتعدى مجال الرد على الاعمال العدوانية ، والدفاع عن ديار المسلمين وأقاليمهم .

لقـد وجد العبـاسيون أنفسهم وهم يحكمـون دولة إسـلاميـة متـرامية الأطـراف ، تمتد من حـدود بلاد الصين حتى حـدود بلاد الفرنج (فرنسا) ، ولم تخـرج من قبضتهم إلاَّ بلاد الأنـدلس التي

هيمنَ الأمويون على حكمها ، ولهذا فقد انصرف همّ بني العباس - منذ بداية عهدهم - لضمان السيطرة على هذه الأقاليم ، والدفاع عنها ، وتأمين الاستقرار فيها ، وترسيخ دعائم الإسلام في ربوعها ، في حين كان هدف الأمويين باستمرار هو نشر رايات الإسلام فوق كل صقع يمكن الوصول إليه . ولهذا فإذا ما كان للأمويين شرف الفتوح ، فقد أخذَ العباسيون ، ومنذ عهد أبي جعفر المنصور ، على كاهلهم مهمة الدفاع عن هذه الدولة وحمايتها . وقد يكون للفتن الداخلية دورها في تجميد الفتوح أيام أبي جعفر المنصور ، غير أن الأمر الواضح هو أن خلفاء بني العباس على التتابع قد أخذوا عنه سياسته الدفاعية ، فاقتصروا على ما تركه لهم الأمويون من بلاد رفعت عليها راية الإسلام .

ومن المعروف أنه كانت لبني العباس مواقفهم في مواجهة الروم - البيزنطيين - مثل موقف الرشيد من نقفور - على نحو ما سترد قصته في كتاب الرشيد - ومثل موقف المعتصم في عمورية ، ولكن وحتى في هذه المواقف ، لم تكن إدارة الحرب أكثر من إدارة دفاعية في استراتيجيتها وهدفها ، هجومية في عملياتها ، بدلالة أنها لم تضم بلاداً جديدة لأقاليم العالم الإسلامي .

لقد انطلقت الدعوة العباسية من خراسان وبلاد فارس ، ونجحت في القضاء على الدولة العربية الإسلامية التي مثّلها الأمويون . ونقل بنو العباس عاصمتهم إلى المشرق ، فبنىٰ لهم أبو جعفر المنصور بغداد ، وذلك للإبقاء على الاتصال مع بلدان المشرق ، فهل عرف العباسيون خطورة هذا المشرق وما يتمخّض عنه من فِتن وثورات ، بحكم تجربتهم الذاتية ، فرغبوا في البقاء قريباً منه للمحافظة على دولتهم ؟ أم هل وجدوا أن أعمال الفتوح قد

استنزفت قدرة الدولة الأموية ، وعجّلت بسقوطها ، نظراً لما كانت تتركه الفتوحات السريعة من بؤر متفجرة ؟ أم هل وجدوا بأن المجتمع الإسلامي قد باتَ بحاجة للهدوء والاستقرار بعد تلك العواصف الهوجاء التي رافقت فتوحات العهد الأموي ؟ .

مهما كان عليه الأمر ، فالحقيقة الثابتة هي أن أبا جعفر المنصور قد نهجَ في عهده نهج إدارة الحرب الدفاعية ، ثم جاء خلفاء بني العباس من بعده ، فنهجوا نهجه ، وساروا على سيرته ، فاستقرَّت الدولة الإسلامية ضمن الحدود التي رسمها الأمويون على سطح الكرة الأرضية . فهل يحمل أبو جعفر المنصور تبعات هذا التحوّل من إدارة الحرب الهجومية إلى إدارة الحرب الدفاعية ؟

لقد حكم المنصور طوال اثني وعشرين عاماً تقريباً ، وكان هو المؤسس الحقيقي لدولة العباسيين ، وكان هو واضع سياستها الداخلية والخارجية ، ولقد حاول طوال سني حكمه أن يسير على نهج بني عمومته من الأمويين ، في فرض هيمنة الدولة الإسلامية ووحدتها ، وحقق نجاحاً كبيراً في كافة المجالات ، ولكنه فشل في ضم الأندلس إلى حكمه ، وربما كان لهذا الفشل دوره في تجميد الفتوحات .

* * *

٢ ـ المنصور وعبد الرَّحمٰن الداخل

دخل عبد الرَّحمٰن بن معاوية بن هشام إلى بلاد الأندلس سنة تسع وثلاثين ومائة ، وأقام فيها حكمه ، وفتحها أمام أولاد عمومته من الأمويين الذين كانت تطاردهم سيوف بني العباس ، وتسمَّى بأمير الأندلس ، ولم ينتحل لقب الخليفة أو أميرالمؤمنين ، واستقرَّ له الأمر بالأندلس بعد صعوبات لا نهاية لها .

ولما استقرَّ الحكم في المغرب العربي ـ الإسلامي للعباسيين ، رغب المنصور إخضاع الأندلس لحكمه ، فأرسل في سنة ست وأربعين ومائة قوة من إفريقية إلى الأندلس بقيادة (العلاء ابن مغيث اليحصبي) الذي نزل بباجةَ الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور ، واجتمع إليه خلق كثير ، فسارَ عبد الرَّحمٰن إليه ، ولقيه بنواحي إشبيلية ، فقاتله أياماً ، ثم انهزم العلاء ، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه ، وبعثَ عبد الرَّحمٰن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكة ، فألقيت في أسواقها سراً ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء ، فارتاعَ المنصور لذلك ، وقال : « ما هذا إلَّا شيطان ، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر » ،أو كلاماً هذا معناه .

فلذلك ما ظلَّ أبو جعفر المنصور يسترجع عبد الرَّحمٰن كثيراً ، ويعد له بنفسه ، ويكثر ذكره ، ويقول : « لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذّ في جميع شؤونه ، وعدمه لأهله ونسبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقىً همته ، ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمالَ قلوب رعيته بقضية سياسته ، حتى انقادَ له عصيُّهم ، وذل له أبيُّهم ، فاستولى على أريكته ، ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه »[1] .

وإذن فقد حاول المنصور من جهته تأمين ، أو بالأحرى تنفيذ ، مبدأ الطاعة والجماعة على كافة بلاد المسلمين ، غير أنه عجز عن بلوغ هدفه ، وتذكر المصادر التاريخية أن عبد الرَّحمٰن الداخل كان يفكر بدوره استعادة ملك أسلافه في بلاد الشام ، فعجز بدوره عن بلوغ هذا الهدف ، ونجم عن ذلك قيام دولتين إسلاميتين منفصلتين تماماً .

ولقد حاول أمراء بني أمية في الأندلس تطبيق استراتيجيتهم الهجومية ، فنظموا الثغور ، وتابعوا إرسال الصوائف والشواتي لغزو بلاد الفرنج ، غير أن إمكاناتهم بقيت محدودة ، فعجزوا عن تجاوز

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٣١ ـ ٣٣٢ والكامل في التاريخ ـ إبن الأثير ، أحداث سنة ست وأربعين ومائة .

حدود الأندلس ، ثم ما لبثت الفتن الداخلية والثورات المتتالية أن استنزفت قدرتهم في المغرب ، على نحو مماثل تماماً لما كانت تتعرض له دولة العباسيين في المشرق . فهل يمكن أن يعزى جمود الفتوحات في المشرق والمغرب لانقسام الدولة العربية الإسلامية إلى قطبين متصارعين أحدهما في المشرق والثاني في المغرب ؟

لا ريب أن انقسام الدولة العربية الإسلامية قد أسهمَ في إضعاف مركزية القيادة ، ولكن ألم يبقَ في قبضة العباسيين من الموارد المادية والبشرية قدراً أكبر بكثير مما توافر للأمويين في عهد فتوحاتهم ؟ وإذا كان المنصور قد عجزَ عن تجاوز الأندلس ، أفلم يكن له في المشرق مجال أكثر اتّساعاً لمتابعة سياسة الفتوح ؟ ولماذا لم يحاول العباسيون ـ مثلاً ـ القضاء على دولة الروم ـ البيزنطيين ـ على نحو ما كان يحاوله خلفاء بني أمية بصورة مستمرة ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال تؤكد أن القضية لم تكن قضية قصور في القوى والإمكانات بالنسبة لخلفاء بني العباس ، بقدر ما كانت قضية قوى وإمكانات حقاً بالنسبة لأمويي الأندلس . وعلى هذا ، فقد كان الأمويون يربطون وجودهم ، وحكمهم ، بالفتوحات ، في حين ربط العباسيون حكمهم بالاستقرار وحماية الدولة العربية الإسلامية ، فكان تجميد الفتوحات نتيجة طبيعية لاختلاف هدف الحكم ومفهومه .

لقد كان خلفاء بني أمية مسلمون حقاً وصدقاً ، وكان خلفاء بني العباس مسلمون حقاً وصدقاً ، وهذه سيرة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، في أقواله وأعماله ، وهي لا تترك مجالاً للتأويل أو

التفسير ، وكذلك كان أبناء عمومتهم من بني هاشم ينافسون الأمويين والعباسيين في صدق إيمانهم وإسلامهم . وإذن فقد كانت المنافسة هي من أجل الحكم الأمثل والأفضل لمصلحة العرب المسلمين خاصة والمسلمين عامة ، ولا بد في هذه المنافسة من الاجتهاد ، وقد يصيب المجتهد ويخطىء ، لاسيّما عندما تتشابك العوامل الفردية ـ الشخصية ـ بأسس الحكم وإدارته ، وفي ظروف زمنية ومكانية مثل تلك التي نشبت في تلك الحقبة التاريخية ، وإذن فمن المحال إدانة المنصور في قضية (تجميد الفتوحات) .

ثم ألم تتعرض الفتوحات لانتكاسات مريرة خلال فترة الفتنة الكبرى (مقتل عثمان رضي الله عنه) وأثناء مرحلة الصراع بين (علي ومعاوية) رضوان الله عليهما ؟ . . .

وبعد ذلك ، ألم يجابه عبد الملك بن مروان من الصعوبات الداخلية ما حمله على تجميد الفتوحات الخارجية ، إلى أن تمكن من القضاء على ثورة الزبيريين في مكة والعراق ؟

هنا يظهر دور الفتن الداخلية التي مارست دورها يقيناً في تجميد الفتوحات أيام أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، ثم أصبحت من بعده سنّة متّبعة . وعند هذه النقطة بالذات يمكن التساؤل : هل كان الخلاف بين الأمويين والهاشميين والعباسيين هو سبب التمزّق الذي عرفته جبهة المشرق والذي أدّى إلى انهيار الحكم الأموي وقيام الحكم العباسي ؟ أم أن تيار التمرد والثورة قد تفجر هادراً في المشرق ، وجاء بنو العباس وأبناء عمومتهم من الهاشميين فركبوا موجة التمرد والثورة ومنحوها مباركتهم فأعطوها ذريعتها الشرعية ؟

لقد بقيت أرض فارس تضطرم ناراً ، غير أن جيوش الفتح استطاعت القضاء على حركات التمرد والثورة ، وأقبل الناس على الإسلام ، بعضهم صدق إسلامه ، وبعضهم اعتنقه تقليداً وفهمه على أساس أفكار سلفية - بوذية أو وثنية - ، فلما جاءت الدعوة العباسية ، بعثت النار من وسط الهشيم[1] فأيقظت المطامع الكامنة والأحقاد الدفينة ، وسارت الرايات السوداء ، ولم يكن المنصور يجهل قوة تلك البراكين المتفجرة ، وهو الذي عاش حياة الثورة العباسية بأبعادها الكاملة ، ولهذا لم يكن غريباً عليه أن يكون حذراً منها أكثر من حذره من أعداء الخارج . وبالتالي ، لم يكن غريباً عليه أيضاً أن يصرف جهده كله لتهدئة ثائرة الثورة للإنتقال من عهد الفوضى والاضطراب إلى عهد الدولة المسؤولة ، ولم تكن عملية الانتقال هذه بالعملية السهلة. والمهم في الأمر هو أن المنصور كان يدرك تماماً ما تحمله البؤر المتفجرة من أخطار فيما إذا توافر لها التحريض الخارجي ، وهذا ما يفسر حرص المنصور على ملاحقة أخبار بني عمومته (من بني هاشم) ، ومطاردة محمد وإبراهيم طوال خمس سنوات من سني حكمه .

هل يعني ذلك أن المنصور خاصة - وبني العباس عامة - كانوا يعملون لبناء مجد شخصي لا أكثر ؟

---

(١) وهذا هو بدقة ما وصفه (نصر بن سيار) آخر ولاة الأمويين في بلاد فارس ، والذي أرسل تحذيره إلى بني أمية ، شعراً ، فكان مما قاله :

أرى بين الرماد وميض نار ... وأخشى أن يكون له ضرامُ
فإن النار بالعودَين تُذكى ... وإنَّ الحرب مبدؤها الكلامُ
فقلتُ من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيامُ

انظر تاريخ الطبري ٧/ ٣٦٩ وابن الأثير ٤/ ٣٠٣ .

ليس هناك من يستطيع إنكار العامل الفردي ـ أو الشخصي ـ في حياة الإنسان والمجتمع ، ولكن قد يكون من الظلم للمنصور خاصة ، ولخلفاء المسلمين عامة ، نسب ما قاموا به من الأعمال بتأثير عامل فردي ـ كالطمع أو الطموح ـ بل إن القضية أعمق من ذلك ، فقد كان المنصور وبنو العباس يجدون في أنفسهم كفاءة أكثر ، وقدرة أكبر لخدمة قضية الإسلام والمسلمين ، وكان أبناء عمومتهم من الهاشميين يمتلكون الشعور ذاته ، وهو ما كان يشعره خلفاء بني أمية من قبل . وتبرز مواقف المنصور هذه الحقيقة وتؤكدها ، وفي مثل هذه الحال يكون من الصعب جداً فصل (المحرض الشخصي) عن (المحرض الديني) بسبب (وحدة الهدف) في خدمة الإسلام وأهله ، ورفع راية الإسلام وتطبيق قواعده وشرائعه على الناس كافة . وفي الحالات كلها ، فقد جاء الإسلام نهجاً للدين في الدنيا والآخرة ، فكان خلفاء المسلمين من أمويين وعباسيين بشراً لا ملائكة ، ولا أنبياء ، فكانت لهم نوازعهم الدنيوية ، ولهم أهدافهم الدينية ، وكانوا يحرصون في الحالات معظمها على التوفيق بين متطلباتهم الدنيوية وأهدافهم الدينية . ويمكن اعتبار المنصور نموذجاً من هذه النماذج الفاضلة التي أعطت للدنيا ما تستطيع وعملت للآخرة بأكثر مما تستطيع ، وكان عمله في الدنيا يقيناً لمصلحة العرب المسلمين خاصة والمسلمين عامة . ولقد تولىٰ المنصور الخلافة وسط موجة عاتية من الهيجان والاضطراب فأمكن له بعد سنوات من الصراع المرير تثبيت دعائم الدولة الإسلامية على أسس راسخة وقواعد ثابتة ، حتى أصبحت نموذجاً يحتذى لا في العصور القديمة والوسطىٰ ، وإنَّما أيضاً في الأزمنة الحديثة .

٣ ـ قصة المنصور مع الخراساني

يمكن على ضوء ما تقدم إدراك الحافز الأساسي والدافع الحقيقي ، الذي دفع المنصور لقتل أبي مسلم الخراساني ، فليست القضية هي قضية سباق على طريق مكة المكرمة ، وليست أيضاً قضية نزوع إلى السلطة المطلقة من جانب المنصور ، بقدر ما كانت عملاً هادفاً للقضاء على ما كان يمثله مركز القوىٰ الخراساني من تهديد للدولة الإسلامية بالانحراف عن الدين . وفي الحالات كلها ، لم يكن هذا العمل نزوعاً بتأثير عامل شخصي فقط ، فقد نصح المنصور أخاه السفاح بقتل أبي مسلم الخراساني ، قبل أن يتسلّم الخلافة ، وكاد يهم بقتله لولا أن منعه السفاح من ذلك . وعندما انتهت الخلافة للمنصور ، كان أول عمل فكّر القيام به ، وعمل على تنفيذه ، هو قتل أبي مسلم الخراساني ، وليس ذلك إلاّ دليلاً على ما كان يراه المنصور من خطر على الدولة العباسية في شخص الخراساني ، وفيما يمثله الخراساني .

لقد ظهرت الدولة العباسية في خراسان ، وانتصرت بأهلها . واستثمر أبو مسلم هذا الموقف حتى أبعد الحدود ليقيم دولة داخل الدولة ، حتى أن الخليفة السفاح لم يكن يقطع أمراً دونه ، وحتى

أن الخليفة كان محاطاً بعيون الخراساني ـ جواسيسه ـ وخاضعاً لرقابته ، وهذا هو ما دفع المنصور عند قتله للقول : « وهل كان من شأن بوجود أبي مسلم ؟ » .

وقد يكون ما سبقَ دافعاً للاعتقاد بأن الصراع الضمني الذي انتهى بالقضاء على أبي مسلم إنَّما كان صراعاً على السلطة ؟ ! ولكن الأمر كان يتجاوز هذه الحدود ؛ فلقد أراد أبو مسلم فرض هيمنته على الخلافة العباسية ، والسيطرة على أمورها ، من موقع القوة والقدرة ، فهل أراد ذلك لكونه خراسانياً ؟ أم لإذكاء نار الشعوبية ؟ .

لقد أجاب أبو مسلم على المنصور يوم عينه لولاية الشام ومصر : « أيصرفني إلى الشام وخراسان لي ؟ » . وإذن فالقضية ليست مجرد قضية محاولة للهيمنة على الدولة العربية ـ الإسلامية ، وإنَّما هي قضية إثارة للشعوبية تحمل في مضمونها تمزيق وحدة الدولة الإسلامية . وكان طبيعياً أن يستشعر المنصور خطر هذه النزعة ، وأن يبادر إلى معالجتها قبل كل ما عداها من الأمور والشؤون .

لقد ظهر أبو مسلم الخراساني بصورة الرجل المسلم حقاً ، والمؤمن صدقاً ، غير أنه قتل ما يزيد على ستمائة ألف مسلم على طريق الدعوة العباسية ، حتى باتَ مصدر رعب حتى لأقرب أعوانه ومساعديه ، وانتحلَ من الأقوال والرسائل ما استخدمه للإمعان في القتل والتقتيل ضد العرب المسلمين خاصة . وهل كان المنصور إلَّا عربياً إسلامياً في تكوينه ونشأته وانتمائه ؟ فهل كانت هناك ضرورة لمثل هذه الإبادة أم هو تفجير للحقد الدفين ضد العرب المسلمين ؟ .

وإذن فقد أرادَ أبو مسلم الخراساني استخدام الدعوة العباسية للانتقام من العرب المسلمين ، وأرادَ التستر بآل البيت والعباسيين للانحراف بالإسلام ذاته ، ولم تكن مثل هذه النوايا لتخفى على أبي جعفر المنصور ، وإن مما يؤكد ذلك هو ظهور الدعوة (الراوندية) ثم حركة (المقنّع) التي رفعت مرتبة الخراساني إلى حد التأليه ، وجات بمعتقدات وأفكار لا تتفق أبداً مع الإسلام وتعاليمه ، وإنَّما تنسجم مع الوثنية والكفر .

لم تكن أهداف الخراسانيين من التفافهم حول الدعوة العباسية ، ودعمهم لها ، خافية على العرب المسلمين ، وقد عرفها آخر ولاة الأمويين في خراسان وبلاد فارس (نصر بن سيار)[1] وحذر العرب المسلمين منها ، غير أن تيار الدعوة العباسية كان أقوى من أي تحذير ، لقد اشتعلت نار الفتنة ، وتفجر الحقد الأعمىٰ ، فجرف المسلمين ، ودفع العرب المسلمون ثمن ذلك غالياً من دمائهم ، والأهم من ذلك هو أن أبا مسلم بقضائه على

---

(١) أفاد أبو مسلم الخراساني من اختلاف العرب المسلمين في خراسان ، واستثمر الصراع بين اليمنية والمضرية لنشر دعوته ، فما كان من نصر بن سيار إلَّا أن أطلق تحذيره بقوله :

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن	أن اغضبوا قبل ألَّا ينفع الغضبُ
ما بالُكُم تنشبون الحرب بينكم	كأن أهل الحجىٰ عن رأيكم غُيَّبُ
وتتركون عدواً قد أحاطَ بكم	ممَّن تأشب لا دين ولا حسبُ
لا عربٌ مثلكم في الناس تعرفهم	ولا صريحُ موالٍ إن هُم نسبوا
من كان يسألني عن أهل دينهم	فإن دينهم أن تهلك العربُ
قومٌ يقولون قولاً ما سمعتُ به	عن النبي ولا جاءت به الكتبُ

تاريخ الطبري ٧/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥ وابن الأثير ٤/ ٣٠٤ .

العرب المسلمين قد أفسحَ المجال الرحب لظهور الانحرافات ، ولنشاط أهل الملل والنحل ، فانطلقوا للعمل بطاقتهم الكاملة ، للكيد للإسلام وأهله ، والنيل من الإسلام وأهله ، تحت ستار الإسلام ذاته . وكان من طبيعة الأمور أن يتصدَّى المنصور لهذا الخطر الداهم الذي حملته الدعوة العباسية والتي أدَّت إلى قيام الدولة التي تربَّع هو على حكمها ، وإدارة أمورها ، غير أن هذا التصدّي اقتصر على شخص (أبي مسلم الخراساني) تجنباً لإثارة الفتنة وهذا ما يفسر حرص المنصور على إنهاء حياة أبي مسلم بمعزل عن قواته وأصحابه واستدراجه إلى ما يشبه الكمين . وقد عرف المنصور أن أبا مسلم قد استقطب مراكز القوى في خراسان ، ولهذا فقد أسرعَ لإصدار بيان أو تعميم ، ذكرَ فيه انحرافات أبي مسلم والتي دفعت لإنهاء حياته .

ومن هنا يظهر أن المنصور قد عمل على إظهار الخلاف بينه وبين أبي مسلم ، على أنه خلاف شخصي بهدف حصر الفتنة في أضيق حدودها ، غير أن بعض مراكز القوى كانت تعرف حقيقة الموقف ، وظنت أن باستطاعتها الاعتماد على قوتها لمجابهة المنصور ، فكشفت نفسها ، وعرضت نفسها مما جعلها دريئة سهلة لسهام المسلمين الذين وجههم المنصور للقضاء على الفتنة .

لقد أعلن المنصور للخراسانيين أن اعتماده عليهم لن يتأثر بالقضاء على أبي مسلم ، وأنهم سيبقون قوة الحكم العباسي وأنصاره ، فانضمَّت إليه أقوام وحاربته أقوام ، فأما الذين أيّدوه فهم أصحاب الطاعة والجماعة ، والذين حسن إسلامهم وصدق إيمانهم . وأما الذين جابهوه فهم أولئك الذين أرادوا الانحراف بالإسلام من خلال الدعوة العباسية ، ففرزوا بذلك أنفسهم ،

وحددوا مواقعهم من المجتمع العربي ـ الإسلامي .

يظهر من خلال ذلك أن المنصور لم يكن متجنياً على أبي مسلم الخراساني ، ولا ظالماً له ، وإنَّما أراد استباق الأحداث ، والتحكّم فيها ، والقضاء على الفتنة في مهدها قبل أن يستفحل أمرها ويتطاير شررها ، لاسيّما وأن مجال التحريض الخارجي كان متوافراً بسبب الخلاف مع أبناء العمومة من بني هاشم . وهنا يمكن التساؤل : ألم يكن هناك ثمَّة احتمال لانضمام أبي مسلم الخراساني ـ فيما لو لم يتم القضاء عليه ـ إلى ثورة محمد وأخيه ابراهيم ، عندما تفجرت ثورتهما في المدينة المنورة والبصرة ؟ ألم يكن هناك احتمال في مثل هذه الحالة لتعاظم قوات الثورة حتى درجة كافية للقضا على الحكم العباسي ؟ ثم ألم يكن هناك احتمال إذا ما وقع ذلك أن يغرق العالم العربي ـ الإسلامي خاصة في بحر من الدماء ؟ وإذا ما وصل الموقف إلى مثل هذه الحالة ، ألم يكن هناك احتمال للقضاء على الوجود العربي ـ الإسلامي وقيام حكم فارسي ، وثني ، يحمل واجهة الإسلام ؟ أليس هذا هو بدقة ما كان يعمل له أبو مسلم بتحريض من مراكز القوى الوثنية والمنحرفة ؟ .

عند الوصول إلى هذه النتيجة ، وهي نتيجة كانت واضحة ومتوقعة ، يظهر دور المنصور في التأثير على مسيرة الأحداث وتوجيهها لما فيه مصلحة المجتمع العربي ـ الإسلامي خاصة والمجتمع الإسلامي عامة .

لقد أثارت الفتنة الكبرى التي انتهت بقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه هزة عميقة في المجتمع العربي الإسلامي ، ثم جاءت حروب الفتنة الكبرى (صفّين والجمل)

لتزيد من عمق المأساة ، وجاءت بعد ذلك الفتن المتتالية التي تمخّضت عنها بلاد فارس طوال العهد الأموي ، والتي كانت آخرها الدعوة العباسية لتترك إرثاً ضخماً في الحروب الثورية والحروب الثورية المضادة . ولقد استوعبَ المنصور هذه التجارب كافة ، فانصرف لمعالجة الفتن واجتثاث جذورها من مهادها ، وكان القضاء على أبي مسلم الخراساني هو الأنموذج الأمثل في القضاء على الثورات المضادة ، وإخماد الفتنة في مهدها ، وحصر لهيبها على أضيق نطاق ممكن . ولا ريب أن القضاء على ثورة (الراوندية) بمثل تلك السهولة ، ثم استمالة معسكر أبي مسلم الخراساني ـ وقادته ـ إنّما يؤكد مهارة المنصور في التعامل مع الموقف ، ويؤكد أيضاً استعداد المنصور مسبقاً لمجابهة الاحتمالات المختلفة والمرتبطة بالموقف .

وقد يكون من المناسب الإشارة إلى ما أقدم عليه المنصور من اعتماده على الخراسانيين ذاتهم ، وعلى كبار القادة من الخراسانيين ، للقضاء على أي مقاومة ظهرت في خراسان وخارجها ، مما ساعدَ على امتصاص نقمة الخراسانيين الذين أثارهم قتل أبي مسلم . ولقد جاء اعتماد المنصور بعد ذلك على (خالد بن برمك) ليؤكد للخراسانيين ـ عملياً ـ أن قضية (أبي مسلم الخراساني) هي قضية منفصلة عن التعامل مع الخراسانيين باعتبار أنهم قاعدة الحكم العباسي وحجر الزاوية فيه .

وبذلك، استطاع المنصور المحافظة على مكانة العرب المسلمين في الدولة ، كما استطاعَ إفساح المجال أمام الفرس وأهل خراسان للإسهام في بناء الدولة الإسلامية بعيداً عن عصبيات الجاهلية وروابطها .

٤ ـ قضية الخلافة

كان أبو العباس السفاح قد جعل الأمر من بعده لأبي جعفر المنصور ، ثم من بعد أبي جعفر لعيسىٰ بن موسىٰ ، وبعد وفاة أبي العباس ، أقرَّ أبو جعفر (عيسىٰ بن موسىٰ) على ما كان أبو العباس ولّاه من ولاية الكوفة وسوادها ، وكان له مكرماً مجلاً ، فكان إذا دخل عليه أجلسه عن يمينه ، وأجلس المهدي عن يساره ، حتى إذا ما كانت سنة سبع وأربعين ومائة ، عزم المنصور على تقديم المهدي في الخلافة على عيسىٰ بن موسىٰ ، فكلَّم عيسىٰ بن موسىٰ في تقديم ابنه عليه برفيق من الكلام ، فقال عيسىٰ : « يا أمير المؤمنين ! فكيف بالأيمان والمواثيق التي عليَّ وعلى المسلمين لي من العتق والطلاق وغير ذلك من مؤكد الأيمان ؟! ليس إلى ذلك سبيل يا أمير المؤمنين » .

فلما رأى أبو جعفر امتناعه تغير لونه ، وباعده بعض المباعدة ، وأمر بالإذن للمهدي قبله ، فكان يدخل فيجلس دون مجلس المهدي عن يمين المنصور أيضاً ، ولا يجلس عن يساره في المجلس الذي كان يجلس فيه المهدي ، فيغتاظ من ذلك المنصور ، ويبلغ منه ، فيأمر بالإذن للمهدي ثم يأمر بعده بالإذن

لعيسىٰ بن علي ، فيلبث هنيهة ، ثم عبد الصمد بن علي ، ثم يلبث هنيهة ، ثم عيسىٰ بن موسىٰ ، فإذا كان بعد ذلك قدم في الإذن للمهدي على كل حال ، ثم يخلط في الآخرين ، فيقدم بعض من أخر ، ويؤخر بعض من قدم ، ويوهم عيسىٰ ابن موسىٰ أنه إنَّما يبدأ بهم لحاجة تعرض ، ولمذاكرتهم بالشيء من أمره ، ثم يؤذن لعيسىٰ بن موسىٰ من بعدهم ، وهو في ذلك كله صامت لا يشكو منه شيئاً ، ولا يستعتب . ثم صار إلى أغلظ من ذلك ، فكان إذا ما جلس في المجلس ومعه بعض ولده ، سمع الحفر في أصل الحائط ، فيخاف أن يخرّ عليه الحائط ، وينتثر عليه التراب ، وينظر إلى الخشبة من سقف المجلس ،قد حفر عن أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب على قلنسوته وثيابه ، فيأمر من معه من ولده بالتحويل ، ويقوم هو فيصلي . ثم يأتيه الإذن ، فيقوم فيدخل بهيئته والتراب عليه لا ينفضه ، فإذا رآه المنصور قال له : « يا عيسىٰ ! ما يدخل عليَّ أحد بمثل هيئتك من كثرة الغبار عليك والتراب ! أفكل هذا من الشارع ؟! » فيجيب عيسىٰ : « أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ! » .

وكان المنصور يكلمه بذلك فيثيره حتى يشكو إليه شيئاً ، فلا يشكو ولا يستعتب . وعند ذلك لجأ المنصور إلى أسلوب جديد ، فدسَّ لعيسىٰ بن موسىٰ بعض ما يتلفه ، كنوع من السموم ، وشعر بذلك عيسىٰ بن موسىٰ بعد أن تناول ما دسَّ له ، فنهض من المجلس . فقال له المنصور : « إلى أين يا أبا موسىٰ ؟! » فأجاب عيسىٰ بن موسىٰ : « أجد غمزاً يا أمير المؤمنين ! » فقال له المنصور : « ففي الدار إذاً ؟! » قال عيسىٰ : « الذي أجده أشد مما أقيم معه في الدار » فعادَ المنصور وسأله : « فإلى أين ؟ ! » وأجاب

عيسىٰ : « إلى المنزل » .

ومرض عيسىٰ بن موسىٰ ، وبلغت العلّة منه كل مبلغ حتى تمعط شعره ـ تساقط ـ فاستأذن المنصور في الانتقال إلى الكوفة ، ونصحه المنصور بالبقاء في بغداد للعلاج وأصرَّ عيسىٰ بن موسىٰ على الانتقال إلى الكوفة ، واضطر المنصور للموافقة .

وانتقل عيسىٰ بن موسىٰ إلى الكوفة ، ولما يكد يتماثل للشفاء حتى وردته رسالة من المنصور جاء فيها : « بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم . من عبد الله عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى عيسىٰ ابن موسىٰ . سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلّه إلَّا هو . أما بعد ، فالحمد لله ذي المنّ القديم والفضل العظيم والبلاء الحسن الجميل ، الذي ابتدأ الخلق بعلمه ، وأنفذ للقضاء بأمره ، فلا يبلغ مخلوق كنه حقه ، ولا ينال في عظمته كنه ذكره ، يدبر ما أراد من الأمور بقدرته ، ويصدرها عن مشيئته ، لا قاضي فيها غيره ، ولا نفاذ لها إلَّا به ، يجريها على أذلالها ، لا يستأمر فيها وزيراً ، ولا يشاور فيها معيناً ، ولا يلتبس عليه شيء أراده ، يمضي قضاؤه فيما أحب العباد وكرهوا ، لا يستطيعون منه امتناعاً ، ولا عن أنفسهم دفاعاً ، رب الأرض ومن عليها ، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . ثم إنك قد علمت الحال التي كنَّا عليها في ولاية الظلمة ، كيف كانت قوتنا وحيلتنا ، لما اجترأ عليه أهل بيت اللعنة فيما أحببنا وكرهنا ، فصبّرنا أنفسنا على ما دعونا إليه من تسليم الأمور إلى من أسندوها إليها ، واجتمع رأيهم عليه ، نُسام الخسف ، ونوطأ بالعسف ، لا ندفع ظلماً ، ولا نمنع ضيماً ، ولا نعطى حقاً ، ولا ننكر منكراً ، ولا نستطيع لها ولا لأنفسنا نفعاً ،

حتى إذا بلغ الكتاب أجلَه ، وانتهى الأمر إلى مدته ، وأذن الله في هلاك عدوه ، وارتاح بالرحمة لأهل بيت نبيه صلَّى الله عليه وسلَّم ، فابتعث الله لهم أنصاراً يطلبون بثأرهم ، ويجاهدون عَدوّهم ، ويدعون إلى حبهم ، وينصرون دولتهم ، من أرضين متفرقة ، وأسباب مختلفة ، وأهواء مؤتلفة ، فجمعهم الله على طاعتنا ، وألف بين قلوبهم بمودتنا على نصرتنا ، وأعزّهم بنصرنا ، لم نلق منهم رجلاً ، ولم نشهر معهم إلَّا ما قذف الله في قلوبهم ، حتى ابتعثهم لنا من بلادهم ، ببصائر نافذة ، وطاعة خالصة ، يلقون الظفر ، ويفوزون بالنصر ، وينصرون بالرعب ، لا يلقون أحداً ، إلَّا هزموه ، ولا واتراً إلَّا قتلوه ، حتى بلغ الله بنا بذلك أقصىٰ مدانا وغاية منانا ، ومنتهىٰ آمالنا ، وإظهار حقنا ، وإهلاك عدونا ، كرامة من الله جلَّ وعزّ لنا ، وفضلاً منه علينا ، بغير حول منا ولا قوة ، ثم لم نزل من ذلك في نعمة الله وفضله علينا ، حتى نشأ هذا الغلام ، فقذف الله له في قلوب أنصار الدين الذين ابتعثتهم لنا مثل ابتدائه لنا أول أمرنا ، وأُشرب قلوبهم مودته ، وقسم في صدورهم محبته، فصاروا لا يذكرون إلَّا فضله ، ولا ينوّهون إلَّا باسمه ، ولا يعرفون إلَّا حقّه ، فلما رأى أمير المؤمنين ما قذف الله في قلوبهم من مودّته ، وأجرى على ألسنتهم من ذكره ، ومعرفتهم إيّاه بعلاماته واسمه ، ودعاء العامة إلى طاعته ، أيقنت نفس أمير المؤمنين أن ذلك أمر تولّاه الله وصنعه ، لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ، ولا مؤامرة ولا مذاكرة، للذي رأى أمير المؤمنين من اجتماع الكلمة ، وتتابع العامة ، حتى ظنَّ أمير المؤمنين أنه لولا معرفة المهدي بحق الأبوة ، لأفضت الأمور إليه ، وكان أمير المؤمنين لا يمنع مما اجتمعت عليه العامة ، ولا يجد

مناصاً عن خلاص ما دعوا إليه ، وكان أشد الناس على أمير المؤمنين في ذلك الأقرب فالأقرب من خاصته وثقاته من حرسه وشرطه ، فلم يجد أمير المؤمنين بداً من استصلاحهم ومتابعتهم .

وكان أمير المؤمنين وأهل بيته أحق من سارعَ إلى ذلك وحرص عليه ، ورغب فيه وعرف فضله ، ورجا بركته ، وصدق الراوية فيه ، وحمد الله إذ جعل في ذرّيته مثل ما سألت الأنبياء قبله ، إذ قال العبد الصالح : ﴿**فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً**﴾[1] ، فوهب الله لأمير المؤمنين ولياً ، ثم جعله تقياً مباركاً مهدياً ، وللنبي صلَّى الله عليه وسلَّم سمياً ، وسلب من انتحل هذا الاسم ، ودعا إلى تلك الشبهة التي تحيّر فيها أهل تلك النيّة ، وافتتن بها أهل تلك الشقوة ، فانتزع ذلك منهم ، وجعل دائرة السوء عليهم ، وأقرَّ الحق قراره ، وأعلن للمهدي مناره ، وللدين أنصاره ، فأحبَّ أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأي رعيته ، وكنتَ في نفسه بمنزلة ولده ، يحب مَنْ سترك ورشدك وزينك ما يحب لنفسه وولده ، ويرى لك إذا بلغك من حال ابن عمك ما ترى من اجتماع الناس عليه ، أن يكون ابتداء ذلك من قبلك ، ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم أنك أسرع إلى ما أحبوا مما عليه رأيهم في صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم ، وإن ما كان عليه من فضل عرفوه للمهدي ، أو أملوه فيه ، كنت أحظى الناس بذلك ، وأسرهم به لمكانه وقرابته ، فاقبل نصح أمير المؤمنين لك ، تصلح وترشد ، والسلام عليك ورحمة الله » .

---

(١) سورة مريم ـ الآيتان ٥ و٦ .

وأجاب عيسى بن موسى برسالة جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين من عيسى بن موسى .

سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد . فقد بلغني كتابك تذكر فيه ما أجمعت عليه من خلاف الحق وركوب الإثم في قطيعة الرحم، ونقض ما أخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء للخلافة والعهد لي من بعدك، لتقطع بذلك ما وصل الله من حبله، وتفرق بين ما ألف الله جمعه ، وتجمع بين ما فرق الله أمره ، مكابرة لله في سمائه ، وحولاً على الله في قضائه ، ومتابعة للشيطان في هواه ، ومن كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن ماكره عن شيء خدعه ، ومن توكل على الله منعه ، ومن تواضع لله رفعه . إن الذي أسس عليه البناء ، وخط عليه الحذاء من الخليفة الماضي عهدٌ لي من الله ، وأمرٌ نحن فيه سواء ، ليس لأحد من المسلمين فيه رخصة دون أحد ، فإن وجب وفاء فيه فما الأول بأحق به من الآخر ، وإن حلَّ من الآخر شيء فما حرم ذلك من الأول ، بل الأول الذي تلا خبره وعرف أثره ، وكشف عما ظن به وأقل فيه أسرع، وكان الحق أولى بالذي أراد أن يصنع أولاً ، فلا يدعوك إلى الأمن من البلاء اغترار بالله ، وترخيص للناس في ترك الوفاء ، فإن من أجابك إلى ترك شيء وجب لي واستحل ذلك مني ، لم يحرج إذا أمكنته الفرصة وأفتنته بالرخصة أن يكون إلى مثل ذاك منك أسرع ، ويكون بالذي أسست من ذلك أبخع . فأقبل العاقبة وارض من الله بما صنع ، وخذ ما أوتيت بقوة وكن من الشاكرين . فإن الله جل وعز زائدٌ من شكره ، وعداً منه حقاً لا خلف فيه ، فمن راقب الله حفظه ، ومن أضمر خلافه خذله ، والله يعلم

خائنة الأعين وما تخفَي الصدور ، ولسنا مع ذلك نأمن من حوادث الأمور ، وبغتات الموت قبل ما ابتدأت به من قطيعتي ، فإن تعجل بي أمر كنت قد كفيتَ ما اغتممت له ، وسترت قُبح ما أردت إظهاره ، وإن بقيتُ بعدك لم تكن أوغرت صدري ، وقطعت رحمي ، ولا أظهرت أعدائي في اتباع أثرك ، وقبول أدبك ، وعمل بمثالك .

وذكرت أن الأمور كلها بيد الله ، هو مدبرها ومقدرها ومصدرها عن مشيئته ، فقد صدقتَ ، إن الأمور بيد الله ، وقد حق على من عرف ذلك ووصفه العمل به والانتهاء إليه . واعلم أنا لسنا جررنا إلى أنفسنا نفعاً ، ولا دفعنا عنها ضراً ، ولا نلنا الذي عرفته بحولنا ولا قوتنا . ولو وُكلنا في ذلك إلى أنفسنا وأهوائنا لضعُفت قوتنا ، وعجزت قدرتنا في طلب ما بلغ الله بنا . ولكن الله إذا أراد عزماً لإنفاذ أمره ، وإنجاز وعده ، وإتمام عهده ، وتأكيد عقده ، أحكم إبرامه ، وأبرم إحكامه ، ونوّر إعلانه ، وثبّت أركانه حين أسس بنيانه ، فلا يستطيع العباد تأخير ما عجل ، ولا تعجيل ما أخر ، غير أن الشيطان عدو مضل مبين ، قد حذّر الله طاعته ، وبيّن عداوته ، ينزع بين ولاة الحق وأهل طاعته ، ليفرق جمعهم ، ويشتت شملهم ، ويوقع العداوة والبغضاء بينهم ، ويتبرأ منهم عند حقائق الأمور ، ومضايق البلايا ، وقد قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[1]، **ووصف الذين اتقوا ، فقال** : ﴿ **إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾[2]. فأُعيذ أمير المؤمنين بالله من أن تكون نيته وضمير

---

(١) سورة الحج ـ الآية ٥٢ .

(٢) سورة الأعراف ـ الآية ٢٠١ وانظر تاريخ الطبري : ٨/ ١٤ ـ ١٩ .

سريرته خلاف ما زيّن الله به جل وعز من كان قبله . فإنه قد سألتهم أبناؤهم ونازعتهم أهواؤهم إلى مثل الذي همّ به أمير المؤمنين ، فآثروا الحق على ما سواه ، وعرفوا أن الله لا غالب لقضائه ، ولا مانع لعطائه ، ولم يأمنوا مع ذلك تغيير النعم وتعجيل النقم ، فآثروا الآجلة ، وقبلوا العاقبة ، وكرهوا التغيير ، وخافوا التبديل ، فأظهروا الجميل ، فتمم الله لهم أمورهم ، وكفاهم ما أهمهم ، ومنع سلطانهم وأعز أنصارهم ، وكرم أعوانهم ، وشرف بنيانهم ، فتمت النعم ، وتظاهرت المنن ، فاستوجبوا الشكر ، فتم أمر الله وهم كارهون . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » .

عاد رسول المنصور ـ الربيع ـ من لدن عيسى بن موسى وهو يحمل الرد على رسالته ، فلما قرأ ـ المنصور ـ الرسالة ، وقع عليها : « آسلُ عنها تنل منها عوضاً في الدنيا ، وتأمن تبعتها في الآخرة » .

لم يتراجع المنصور عن هدفه ، رغم رفض عيسى بن موسى التنازل عن حقه في الخلافة ، وكلم الجند لازعاج عيسى بن موسى ومضايقته ، فكانوا إذا رأوه راكباً أسمعوه ما يكره .

وضاق عيسى ذرعاً فشكا أمرهم إلى المنصور ، فقال المنصور للجند على مسمع من عيسى : « لا تؤذوا ابن أخي ، فإنه جلدة بين عيني ، ولو كنت تقدمت إليكم لضربت أعناقكم » فكانوا يكفون ثم يعودون . وتمادوا في ذلك ، حتى كان إذا ركب مشوا خلفه وقالوا : « أنت البقرة التي قال الله : ﴿ فَذَبَحُوها وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ، فعاد فشكاهم ، فقال له المنصور : « يابن أخي ! أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسي ، قد أشربوا حب هذا الفتى ـ يعني ابنه المهدي ـ فلو

قدمته بين يديك فيكون بيني وبينك لكفوا » ، غير أن عيسى بن موسى تابع رفضه بعناد .

وجاء موسى بن عيسى بن موسى إلى عمه العباس بن محمد ، فقال له : « أي عم ! إني مكلمك بكلام لا والله ما سمعه مني أحد قط ، ولا يسمعه أحد أبداً ، وإنما أخرجه إليك موضع الثقة بك والطمأنينة إليك ، وهو أمانة عندك ، فإنما هي نفسي أنثلها في يدك » فقال العباس : « قل يابن أخي ، فلك عندي ما تحبه » فقال موسى : « أرى ما يسام أبي من إخراج هذا الأمر من عنقه وتصييره للمهدي ، فهو يؤذى بصنوف الأذى والمكروه ، فيتعرض للتهديد مرة ، ويؤخر اذنه بالدخول على المنصور مرة ، وتهدم عليه الحيطان مرة ، وتدس اليه الحتوف مرة ، وأبي لا يعطى على هذا شيئاً ، لا يكون ذلك أبداً ، ولكن ها هنا وجهاً فلعله يعطى عليه إن أعطى ، وإلا فلا » وسأل العباس : « فما هو يابن أخي ؟ ! فإنك قد أصبت ووفقت » فقال موسى : « يقبل عليه أمير المؤمنين وأنا شاهد فيقول له : يا عيسى ! إني أعلم أنك لست تضن بهذا الأمر على المهدي لنفسك ، لتعالي سنك وقرب أجلك ، فإنك تعلم أنه لا مدة لك تطول فيه ، وإنما تضن به لمكان ابنك موسى ، أفتراني أَدَعُ ابنك يبقى بعدك ويبقى ابني معه فيلي عليه ؟ ! كلا ، والله لا يكون ذلك أبداً ! ولأثبنَّ على ابنك وأنت تنظر حتى تيأس منه ، وآمن أن يلي على ابني . أترى ابنك آثر عندي من ابني ؟ ثم يأمر بي ، فإما خنقت وإما شهر علي سيف ، فإن أجاب إلى شيء فعسى أن يفعل بهذا السبب ، فأما بغيره فلا » . فقال له العباس : « جزاك الله يابن أخي خيراً ، فقد فديت أباك بنفسك ، وآثرت بقاءه على حظك ، نعم الرأي رأيت ، ونعم المسلك سلكت » . ومضى العباس إلى المنصور ، فنقل إليه

رأي موسى واقتراحه ، فجزى المنصور موسى خيراً ، وقال : « قد أحسن وأجمل ، وسأفعل ما أشار به إن شاء الله » .

وجمع المنصور كبار أقاربه ورجال دولته ومنهم عيسى بن موسى وابنه موسى ، ثم أقبل المنصور على عيسى بن موسى ، وقال له : « يا عيسى ! إني لا أجهل مذهبك الذي تضمره ، ولا مداك الذي تجري إليه في الأمر الذي سألتك ، إنما تريد هذا الأمر لابنك هذا المشؤوم عليك وعلى نفسه . . . أما والله لأعجلن لك فيه ما يسوءك ويوئسك من بقائه بعدك » ونادى المنصور : « أيا ربيع ! قم إلى موسى فاخنقه بحمائله » . فقام الربيع ، فضم حمائله عليه ، وجعل يخنقه بها خنقاً رويداً ، وأخذ موسى يصيح : « الله الله يا أمير المؤمنين فيَّ وفي دمي ، فإني لبعيد مما تظن بي ، وما يبالي والدي أن تقتلني وله بضعة عشر نفراً ذكراً ، كلهم عنده مثلي ، أو يتقدمني » . غير أن المنصور تابع دوره فقال : « اشدد يا ربيع ، ائت على نفسه » ، والربيع يوهم أنه يريد أن يتلفه ، وهو يراخي خناقه ، وموسى يصيح . فلما رأى ذلك عيسى قال : « والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الأمر يبلغ منك هذا كله ، فمر بالكف عنه ، فإني لم أكن لأرجع إلى أهلي ، وقد قتل بسبب هذا الأمر عبدٌ من عبيدي ، فكيف بابني ! فها أنا أشهدك أن نسائي طوالق ، ومماليكي أحرار ، وما أملك في سبيل الله ، تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين ، وهذه يدي بالبيعة للمهدي » .

وأخذ المنصور البيعة لابنه المهدي على ما أحب ، ثم قال : « يا أبا موسى ! إنك قد قضيت حاجتي هذه كارهاً ، ولي حاجة أحب أن تقضيها طائعاً ، فتغسل بها ما في نفسي من الحاجة الأولى » فقال عيسى : « وما هي يا أمير المؤمنين ؟ ! » فقال المنصور : « تجعل

هذا الأمر من بعد المهدي لك ! » فرد عيسى : « ما كنت لأدخل فيها بعد إذ خرجت منها » ، فلم يدعه المنصور هو ومن حضره من أهل بيته حتى قال : « يا أمير المؤمنين أنت أعلم » فكان أهل الكوفة يقولون إذا مر عيسى في موكبه : « هذا الذي كان غداً فصار بعد غد » .

***

تلك هي بعض ملامح قصة انتزاع حق الخلافة من عيسى بن موسى ، ونقل البيعة للمهدي ، وقد أغدق المنصور العطاء لعيسى ابن موسى ، فمنحه عشرة آلاف ألف درهم ـ على ما يقال ـ بالإضافة إلى ثلاثمائة ألف لاولاده وسبعمائة ألف لزوجة من زوجاته .

فلماذا أقدم المنصور على هذا الاجراء ؟ وماذا يهمه من أمر الخلافة بعد أن يفارق الدنيا ؟

قد يكون من طبيعة الأمور أن يفضل المنصور ابنه على أقاربه وأبناء عمومته ، ولكن هناك أكثر من شاهد في النصوص التي سبق عرضها يؤكد أن المنصور كان يخشى من تفرقة الكلمة ، والعودة للتناحر بين أبناء العمومة ، فرغب في ضمان الاستقرار لدولته ـ دولة العرب المسلمين خاصة ودولة المسلمين عامة ـ ، وقد ابتلي المنصور في حياته بتمرد الهاشميين وخروجهم على طاعته ، لا سيما عندما نشبت ثورة محمد وأخيه إبراهيم فحاول حسم الصراع مسبقاً ، لا سيما وأن عيسى بن موسى كان قد تقدمت به سنوات العمر ، فكانت وفاته بعد المنصور ستثير بصورة حتمية الصراع بين المهدي وأبناء عيسى بن موسى ، ولهذا ، حرص المنصور على معالجة الأزمة قبل وقوعها ، شأنه في ذلك شأنه في أموره كلها .

وهنا أيضاً سار المنصور على نهج سيصبح تقليـداً في حكم العباسيين ، وسيظهر هذا التقليد واضحاً في سيرة الرشيد ، خاصة .

ولقد جاء عمل المنصور في نقل البيعة لابنه المهدي ضـربة لمراكز القوى في خراسان والتي كانت تقف وراء المنصور بقدر ما تقف وراء عيسى بن موسى على أمل تجدد الصراع بين (الأهل) مما يترك فرصة للعمل ضد هؤلاء الأهل مجتمعين ، وليس أدل على ذلك من ظهور النقمة على (عيسى بن موسى) في وسط خراسان بسبب تنازله عن الخلافة ، وما تبع ذلك من إضاعة الفرصة أمامهم لإشاعة الفوضى والاضطراب في الحكم العباسي .

* * *

٥ ـ قتال الزيدية والأباضية والصفرية

ليس هناك برهان أكثر وضوحاً ، وأشد تأكيداً على صحة إجراء المنصور في نقل الخلافة إلى ابنه المهدي ، وكذلك حرص المنصور على قتل الخراساني ـ أبي مسلم ـ وإخماد الفتن في خراسان ، من تلك الصراعات التي عرفتها بلاد المشرق والمغرب تحت رايات الخوارج من زيدية وأباضية وصفرية ، وهي وسواها من الحركات الباطنية التي ما فتئت تجد لها في أرض بلاد فارس تربة خصبة للنمو والظهور .

فعندما قام محمد بن عبد الله بن الحسن بثورته في المدينة المنورة ، أرسل ابنه عبد الله المعروف بالأشتر إلى البصرة ، حيث كان يقوم ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بثورته . وبعد أن أنجز (عبد الله بن محمد) مهمته في البصرة ، اشترىٰ منها خيلاً عتاقاً للوصول بها إلى السند والتي كان عاملها للمنصور (عمر بن حفص ابن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة ، أخو المهلب ، والمعروف باسم هزارمرد ويعني ألف رجل) قد بايع محمد بن عبد الله وأخاه ابراهيم ، وكان يتشيّع لآل البيت .

مضىٰ عبد الله بن محمد من البصرة ، فركب البحر إلى

السند ، فلما وصلها وصحبه ، اتَّصلوا بـواليها (عمـر بن حفص) فطلبَ إليهم إرسال الخيول ، فقال له أحدهم : «إنَّا جئناك بما هو خير من الخيل ، وبما لك فيه خير الدنيا والآخرة ، فأعطنا الأمان ، إما قبلت منا ، وإمَّا سترت وأمسكت عن أذانا حتى نخرج عن بلادك راجعين » . فمـا كان من عمـر بن حفص إلاَّ أن منحهم الأمـان ، فذكر له عبد الله بن محمد بن عبد الله حاله ، وثورة أبيه ، فرحب به عمر بن حفص وبايعه وأنزله عنده ، ودعـا كبراء أهل البلد وقواده وأهل بيته إلى البيعة ، فأجابوه ، فرفع الألوية البيضاء ، وهيَّأ الألبسة البيضاء ، وبينما هو يتهيأ ليخـطب في الناس يـوم الجمعة ، وصله مركب فيه رسول من امرأته تخبره بقتل محمد بن عبد الله ، فدخل على عبد الله بن محمد الأشتـر ، فأخبـره الخبر وعـزّاه ، فقال لـه الأشتر : « إن أمري قد ظهر ، ودمي في عنقك ، فانظر لنفسك أو دع » فردَّ عليه عمـر : « رأيت ههنا ملكـاً من ملوك السنـد ، عظيم الشـأن ، كثير المملكـة ، وهو على شـوكة ، أشـد الناس تعـظيماً لـرسـول الله صلَّى الله عليـه وسلَّم ، وهـو وفي ، سـأرسـل إليـه رسولاً ، فأعقد بينك وبينه عقداً ، فأوجهك إليه تكون عنده فلست ترام معه » . وفعل ذلك، وسار إليه الأشتر ، فأكرمه ، وأظهـر بره ، وتسللت إليه الزيدية ، حتى اجتمع معه أربعمـائة إنسـان من أهل البصائر ، فكان يركب فيهم ويتصيد في هيئة الملوك وآلاتهم .

وعلم المنصور بمكان (الأشتـر) ورعايـة أحد ملوك السنـد له ، فكتب إلى عمر بن حفص يخبره ما بلغـه . فلما قـرأ عمر بن حفص الكتـاب ، جمع أهله ، وقـال لهم : « إن أقررت بـالقصـة عزلني ، وإن سرت إليه قتلني ، وإن امتنعت حاربني » . فقـال له رجل منهم : « ألقِ الذنب علي ، وخـذني وقيّدني ، فـإنه سيكتب

في حملي إليه ، فاحملني ، فإنه لا يقدم علي لمكانـك في السند وحال أهل بيتك بالبصرة » . فقال له عمر : « أخاف عليك خلاف ما تظن » فأجاب الرجل : « إن قتلت فنفسي فداء لنفسك » . فقيّده وحبسـه وكتب إلى المنصور يأمـره بحمله ، فلما صـار إليـه ضـرب عنقه .

لم يكن المنصور على قناعة ثابتـة بغدر (عمـر بن حفص) وقد تكون لديه تلك القناعة غير أنه قرر معالجـة الموقف بحـذر ، وإعطاء عمر بن حفص فرصة لإثبات براءته . وكانت أفريقية تضطرم نـاراً ، بعد أن اجتـاحتها الفتنـة وقتل واليهـا (الأغلب بن سـالم) فأصدر المنصور أمره بتعيين عمر بن حفص لولاية أفريقيـة ، وعيَّن (هشام بن عمرو التغلبي) على ولاية السند ، وأمره أن يكاتب ذلك الملك بتسليم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحسن ـ الأشتر ـ فإن سلمه كان خيراً وإلاَّ حاربه . ومضىٰ هشام إلى السند وهو كاره لأخذ عبد الله الأشتر ، فأخذ في استثارة الناس ، واتَّصلت الأخبار بالمنصور بذلك ، فجعل يكتب إليه يستحثّه ، فبينا هو كذلك ، إذ خرجت خارجة ببلاد السند ، فوجه هشام أخاه (سفنجاً) فخرج في جيشه ، وسار على خدود مملكة ذلك الملك الذي يحمي الأشتر ، فبينـا هو يسيـر إذ غبرة ارتفعت ، فـظنَّ أنهم مقدمـة العـدو الـذي يقصده ، فوجه طلائعه ، فزحفت إليه فقالوا له : « هذا عبد الله بن محمد العلوي ، يتنزّه على شاطىء مهران » ، فمضىٰ يريده ، فقال له نصحاؤه : « هذا ابن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وقد تركه أخوك متعمداً ، مخافة أن يبوء بدمه فلم يقصده » فقال سفنج : « ما كنت لأدع أخـذه ، ولا أدع أحـداً يحـظىٰ بـأخـذه أو قتله عنـد المنصور » . وكان عبد الله في عشرة من الرجال ، فقصـده فقاتله

عبد الله وقاتل أصحابه حتى قتل وقتلوا جميعاً ، وسقط عبد الله بين القتلىٰ فلم يشعر به ، وقيل : أن أصحابه قذفوه في مهران حتى لا يحمل رأسه . فكتب هشام بذلك إلى المنصور ، فكتب إليه المنصور يشكره ويأمره بمحاربة ذلك الملك ، فحاربه حتى ظفر به وقتله وغلب على مملكته ، **وتمزق الزيدية شر ممزق** .

* * *

أما ما كان من تطورات في أفريقية ، فقد وصلها (عمر بن حفص) سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس ، وقدم على القيروان ، فاجتمع وجوه البلد ، فوصلهم وأحسن إليهم ، وأقامَ والأمور مستقيمة ثلاث سنين ، ثم سار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة ـ بأمر المنصور ـ واستخلف على القيروان (حبيب بن حبيب المهلبي)، فخلت أفريقية من الجند، فثار بها البربر، فخرج إليهم حبيب فقتل . واجتمع البربر بطرابلس ، وولوا عليهم أبا حاتم الأباضي ـ واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة ـ . وكان عامل عمر ابن حفص على طرابلس هو الجنيد بن بشار الأسادي ، فلما واجه الأباضي ، أرسل إلى عمر يستمده ، فأنجده ببعض القوات ، وتولّى قيادتها ، والتقوا وقاتلوا الأباضي ، فهزمهم ، فساروا إلى قابس ، غير أن الأباضي طاردهم وحاصرهم فيها .

وانتقضت أفريقية من كل ناحية ، وسار الأباضي إلى طبنة ، فحاصر عمر بن حفص بأكثر من سبعين ألف رجل ، فيهم أبي مرة الصفري ـ مقدم الصفرية ـ ومعه أربعين ألفاً ، وعبد الرَّحمٰن ابن رستم في خمسة عشر ألفاً ، وعاصم السدراتي الأباضي في ستة آلاف ، والمسعود الزناتي الأباضي في عشرة آلاف فارس بالإضافة

إلى جمع كبير من الأباضية بقيادة أبي حاتم . فلما رأى عمر بن حفص احاطتهم به ، عزم على الخروج إلى قتالهم ، فمنعه أصحابه وقالوا له : « إن أصبت تلف العرب » ، فعدل عن الخروج ، ولجأ إلى الحيلة ، فأرسل إلى أخي أبي قرة مقدم الصفرية مبلغ أربعة آلاف درهم وثياباً على أن يعمل في صرف الصفرية ، فأجاب إلى ذلك ، وارتحل ، وتبعه العسكر منصرفين إلى بلادهم ، فاضطرَّ أبو قرة إلى اتباعهم . وضعف بذلك أمر الاباضية ، ودارت رحىٰ معارك كثيرة ، انتهت بقتل (عمر بن حفص) وأرسل المنصور جيشاً من ستين ألف مقاتل بقيادة (يزيد ابن حاتم بن قتيبة بن المهلب) فوصل أفريقية سنة اربع وخمسين ومائة ، فطارد الخوارج من صفرية وأباضية وأعمل القتل فيهم إلى أن مزقهم شر ممزق وقضىٰ على قادتهم .

لقد وصف المنصور بالبخل والشحّ ، ولكنه لم يتردد في إنفاق ثلاث وستين ألف ألف درهم لتجهيز جيش (يزيد بن حاتم) من أجل القضاء على ثورات الخوارج في أفريقية . ولا ريب أن ضمان الأمن وتحقيق الاستقرار في أي بلد من بلدان المسلمين هو الواجب الأول للخليفة المسلم ، وكان المنصور يعرف ذلك ، ويعمل له ، ولكن هل كان ذلك الاهتمام بالقضاء على ثورات الخوارج في أفريقية البعيدة كل البعد عن عاصمة العباسيين ، هو من أجل ضمان الاستقرار فحسب ؟

بكلمة أكثر وضوحاً : هل كان المنصور يظهر ذلك الاهتمام كله ، لو لم يكن الخوارج هم القائمين على الثورات في أفريقية ؟ . . .

لقد عرف المنصور خطورة الخوارج ، وفساد دعوتهم ، وانحرافهم ، وهم الذين طالما أرهقوا كاهل الدولة الأموية بثوراتهم المتتالية ، فكان من طبيعة الأمور أن يصرف المنصور اهتمامه جلّه ، لمحاربة هذه الفئة التي لم تتوقف في يوم من الأيام عن شق عصا الطاعة والجماعة .

من ذلك ، على سبيل المثال ، ما فعله الخوارج الصفرية سنة خمس وخمسين ومائة ، عندما اجتمع نفر منهم في (سجلماسة) وثاروا على أميرهم (عيسىٰ بن جرير) واتّهموه بأشياء ، فشدوه وثاقاً ، وصعدوا به إلى رأس جبل ، وأقاموه هناك مقيداً حتى مات .

ولم يكن باستطاعة المنصور أن يترك الأمر ، أمر الخوارج ، ليتعاظم ويشتد ، فبادرَ إلى بذل جهد المستطاع للقضاء على ثوراتهم في أفريقية .

ويظهر واضحاً أن المنصور كان يتعامل مع كل نوع من أعمال التمرد والثورات بحسب درجة خطورته على حاضر الدولة ومستقبلها ؛ فإذا ما كان خطر التهديد مرتبطاً بظروف طارئة ، تجاوز ذلك الخطر من غير أن يعطيه الأهمية الكافية ، وأما إذا كان خطر التهديد يتعلق بالانحراف عن الدين ، أو بتهديد وجود الدولة ، فإن للمنصور موقفه المغاير ، إذ أنه يعمل في مثل هذه الحالة على قذف إمكانات الدولة كلها في كفة الصراع ، ولا يحجم عن قيادة الصراع بنفسه إذا ما تطلّب الأمر .

وبذلك أمكن للمنصور مجابهة أخطر المواقف ، واستطاع تجاوزها ، فضمن تثبيت دعائم الدولة على أسس وطيدة وراسخة .

٦ ـ الجهد المستمر لبناء الدولة

هكذا أمضىٰ المنصور حياته في جهد مستمر وعمل متواصل لبناء الدولة العباسيـة ، دولة العـرب المسلمين ، في وسط الريـاح العاتية والزوابع الهوجاء ، ما يكاد يفـرغ من القضاء على فتنـة من الفتن حتى تندلع نار الثورة في مكان آخر وزمن مختلف ، ولم تكن تلك الثورات معزولة بعضها عن بعض . وأمكن للمنصور في النهاية الشعور بالارتياح لما حقق وأنجز ، غير أن الموت عاجله وهـو في طريقه للحج ، فنام قرير العين هـانئها . لقـد قضىٰ فأوجب عليـه قضاؤه لأمة العرب المسلمين خاصة وللمسلمين عامة .

لقد جابه المنصور خلال سنوات خلافته من الأمور أصعبها ، ومن المشكلات أكثرها تعقيداً ، وتعرَّض للأخطار ، فما وهنت لـه قناة ، ولا تراجع عن موقف من مواقفه ، فمضىٰ بعزم ثابت ، وإرادة صلبة ، حتى احتلَّ مكانته كواحد من كبار خلفاء المسلمين .

وقد يكون لأمير المؤمنين المنصور هنـاته وسـوءاته ، وتلك حسابها عند ربه الذي استخلفه على المسلمين ، أما ما تركه للدنيا فهو مفخرة للدنيا ، في كل مجال من مجالات بناء الدولة .

وقد يعجب إنسان العصر الحديث بذلك النموذج الرائـع من

نماذج خلفاء المسلمين في تلك الفترة الزمنية البعيدة ، حيث يكشف عن مؤهّلات نادرة اجتمعت في شخص القائد الخليفة .

فالمنصور يتابع بدقة ما يحدث في كل مكان من دولته المترامية الأطراف ، يهتم بالأمور كبيرها وصغيرها على السواء ، لا تصرفه الصغائر عن عظيم المشكلات ، ولا تحجب عنه المسائل الكبرى ما تتضمنه من دقائق التفاصيل ، ويعمل على إيجاد الحلول المناسبة لكل مشكلة .

أراد المنصور بناء الرافقة ، فحاول أهل الرصافة مقاومته حتى لا تتضرر مدينتهم ، وحتى لا يتأثر مركزها الزراعي والتجاري ، غير أن المنصور صمَّم على تنفيذ مشروعه ، وبناها على مثل بناء مدينة بغداد ، وعمل للكوفة والبصرة سوراً وخندقاً ، وجعل ما أنفق فيه من الأموال على أهلهما ، واحتاج للمال ، فأراد معرفة عدد السكان ، فأمر أن يقسم فيهم خمسة دراهم خمسة دراهم ، فلما علم عددهم أمر بجبايتهم أربعين درهماً عن كل فرد[١] .

ورغب المنصور في تطوير اللباس ، فأمر بتلبيس القلانس الطوال المفرطة في الطول[٢] ، فكانت من السمات المميزة لتطور اللباس في عصر المنصور خاصة وفي العصر العباسي عامة .

---

(١) وفي ذلك قال شاعر عربي (ابن الأثير ٥/ ٣٨) :

يا لقوم ما لقينا ... من أمير المؤمنينا
قسم الخمسة فينا ... وجابنا الأربعينا

(٢) وفي ذلك قال الشاعر أبو دلامة (ابن الأثير ٥/ ٣٧) :

وكنا نرجىٰ من إمام زيادة ... فزاد الإمام المصطفى في القلانسِ
تراها على هام الرجال كأنها ... دنان يهود جللت بالبرانسِ

ولم يكن أي عمل من أعمال المنصور يمر من غير اعتراض أو مقاومة ، ولكن المنصور استطاعَ وبصورة مستمرة المضيّ قدماً بثبات ، وذلك أنه كان يؤمن أن من واجبه العمل لتطوير دولته تطويراً ثابتاً ومستمراً .

اعتمد أمير المؤمنين المنصور على رجال كان لهم دورهم في دعم الحركة العباسية وظهورها ، ولكن هؤلاء الرجال كانوا في كثير من الأحيان على استعداد للتخلي عن المنصور ، وتأييد سواه من آل البيت ـ الهاشميين ـ على نحو ما سبق عرض موقف (عمر بن حفص) من الأشتر . ولم يكن المنصور يجهل هذه الحقيقة ، ولكن قوة شخصية المنصور وشدة بأسه قد أرغمت جميع أولئك الرجال على اتباع أحد سبيلين : إما الخضوع أو الاعتزال ، وكانوا يفضلون الخضوع في معظم الأحيان على الاعتزال . وبذلك أمكن للمنصور أن يضم إليه مراكز القوى التي كان يحتمل لها أن تثير في وجهه المتاعب، أو تخلق الفتن والاضطرابات .

واجتمعت للمنصور إدارة الدولة وإدارة الحرب ، على نحو ما كانت عليه أمور الدول في العالم القديم ، ولقد كان لذلك حسناته وسيئاته ، وفقاً لما كان يتميز به شخص الخليفة من القدرة والكفاءة ، ولقد برهن المنصور على ما توافر له من الفضائل والإمكانات مما جعله بحق نموذجاً لرجل الدولة ، ورجل الحرب .

ولم يكن باستطاعة المنصور ، رغم ما توافر له من القدرة والإمكانات ، أن يجابه المآزق الصعبة والمواقف العسيرة بمفرده . وهنا تظهر ميزة (الشورىٰ) التي جاءَ بها الإسلام لتضع السلاح الفعال في يد الحاكم . وقد ظهر أن المنصور لم يكن يبرم أمراً من

أموره الكبرى إلاَّ بعد أن يقلّبه من كافة الوجوه ، وإلاَّ بعد أن يعطيه حقه من البحث والدراسة عن طريق (الشورىٰ) .

ولكن ماذا كان سيحدث للمنصور لو أنه استشار من يضمرون له الغش ، أو ينوون به الغدر ، أو حتى من يفتقرون للرأي السديد والنصح الرشيد ؟ ألم يكن هناك احتمالٌ لتصبح الشورىٰ سلاحاً فتاكاً ضد المنصور ذاته ؟

وهنا تظهر ميزة المنصور وفضائله بالاعتماد على خيار الرجال ممَّن يصدقون في استشارتهم ويخلصون في نصحهم ، ويمتلكون المعرفة الكافية للتمييز بين المواقف .

وبالرغم من ذلك ، فقد كان للمنصور في النهاية تقويمه الخاص للمواقف ، وكان له أسلوبه المميز في معالجتها ؛ فإذا لم يعجبه ما قُدِّم إليه من نصح ومشورة انفردَ برأيه ، وكان على حق في ذلك بحسب ما برهنت عليه مسيرة الأحداث في حياته .

لقد تمكن أبو العباس السفاح القضاء على حكم بني أمية ، وأقام بالتعاون مع أبي مسلم الخراساني بنيان الدولة الجديدة ، غير أن مدة حكم السفاح لم تتجاوز من السنين عدد أصابع اليد ، وهي فترة لا تكاد تذكر في حياة الدول والشعوب ، وجاء المنصور لإقامة بنيان الدولة الجديدة ، ولقد حملت الدعوة العباسية في تيارها انحرافات كثيرة ، وكان ذلك أخطر ما في الموقف .

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية ، فقد أقامَ العباسيون دعوتهم ضد ما زعموا من انحرافات (خلفاء بني أمية) ، ومعروف أن خلفاء بني أمية لم يكونوا إلاَّ نسيجاً مميزاً للحكم العربي ـ الإسلامي ! فهل كان باستطاعة المنصور الخروج على نهج بني أمية في بناء

الدولة العربية ـ الإسلامية ؟ .

هنا كانت المشكلة الحقيقية للخليفة المنصور ، وإن تحليل مسيرة الأحداث في حياة المنصور يظهر أنه لم يكن إلَّا خليفة أموياً باسم عباسي ؛ فمحاربته للشيعة والخوارج ، ومطاردته للمنحرفين والزنادقة ، ومجابهته للشعوبية ودعاتها ، منذ اليوم الأول لخلافته وحتى اليوم الأخير في حياته ، لم تكن إلَّا استمراراً للنهج الأموي ، وإلَّا تطويراً له ، على الرغم من استمراره في مطاردة الأمويين ومحاربته لهم في الشرق والغرب .

ولكن هل كان باستطاعة المنصور اختيار نهج آخر ؟

لقد عاش في زمن المنصور رجال من العلماء وذوي الفضل لم يكن أقلهم الإمام أبو حنيفة أو الأوزاعي أو القاضي أبو يوسف وسواهم كثيرون بعضهم اشتهرت معرفتهم وأكثرهم الله بهم أعلم وأعرف ، وهؤلاء وأمثالهم من الأمناء على الأمة العربية الإسلامية هم ممَّن لا يخافون في الله لومة لائم .

وتجاه هؤلاء وأمثالهم لم يكن باستطاعة المنصور ـ حتى لو أراد الانحراف ـ إلَّا أن يكون مثالاً للحاكم المسلم ، ولكن وحتى إن أمكن تجاوز هذا العامل الذي يلقي بثقله يقيناً في كفة ميزان الحكم ، فقد كان المنصور يمتلك من الإيمان والمعرفة بالإسلام ما يجنبه مواطن الزلل والانحراف ، ولهذا لم يكن غريباً على المنصور أن يقيم دعائم دولته على الأرضية التي أقامَ عليها الأمويون من قبل حكمهم ـ أرضية العرب المسلمين ـ أصحاب الرسالة وحاملو الأمانة .

كـان المنصور عبـاسياً ، غيـر أنه كـان حاكمـاً عربيـاً مسلماً مؤمناً .

وكان معاوية بن أبي سفيان من قبل أموياً ، غير أنه كان حاكماً عربياً مسلماً مؤمناً .

وجـاء من بعد معـاوية عبـد الملك بن مروان وعمـر بن عبد العزيز وهشام والوليد وسواهم وكانوا جميعـاً حكامـاً عربـاً مسلمين مؤمنين .

وجاء من بعد المنصـور هارون الـرشيد والمعتصم وسـواهم حكاماً من بني العباس ، غير أنهم كـانوا بـدورهم نماذج للحكـام العرب المسلمين المؤمنين .

وتتـابعت أقوام وأقـوام كلها عـاشت على أرضية واحـدة هي أرضية الإسلام والإيمان ، وعلى هذه الأرضية زهت الدنيا ، ما أقامَ قوم عليها حكمهم إلاَّ اغتنوا أو سادوا ، ومـا هجرهـا قوم إلاَّ ذلـوا وهانوا .

فالفضل ليس للمنصور فيما أنجز وأبدع ، وإنَّما الفضل لتلك الأرضية الإسلامية التي حفظت للبنيان قوته وقدرته .

فلولا الإسـلام لم يكن للسفاح ولا للمنصـور ذكـر في هـذه الدنيا .

وبفضل الإسلام سيبقى للمنصور ذكر في هذه الدنيا .

بسام العسلي

قـراءات

١ ـ في مجالس المنصور .
٢ ـ من خطب المنصور وأقواله .
٣ ـ المنصور وأهل بيته .
٤ ـ سياسة الولاة .
٥ ـ أبو جعفر المنصور والناس .
٦ ـ قصة المنصور وابن هبيرة .
٧ ـ وداع المنصور ووصيته .
٨ ـ الشاعر سلم الخاسر يرثي المنصور .



(١) في مجالس المنصور

جلس المنصور في مجلسه ، وقرأ القاريء البصري الهيثم حتى وصل إلى الآية الكريمة ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾[١] إلى آخر الآية . فقال له المنصور ، وجعل يدعو : ﴿ **اللهم جنبني وبني التبذير فيما أنعمت به علينا من عطيتك** ﴾ . وقرأ الهيثم عنده في مرة أخرى : ﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ** ﴾[٢] فقال أبو جعفر المنصور : « لولا أن الأموال حصن السلطان ، ودعامة للدين والدنيا وعزهما وزينتهما ، ما بتّ ليلة وأنا أحرز منه ديناراً ولا درهماً ، لما أجد لبذل المال من اللذاذة ، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة » وقرأ القاريء ـ أبانا ـ في مجلس المنصور : ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. الآية** ﴾[٣] فقال المنصور : « ما أحسن ما أدبنا ربنا » .

* * *

وجاء بختيشوع الأكبر من (السوس) لزيارة المنصور ، ودخل

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية ٢٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٧ .

(٣) سورة الإسراء ـ الآية ٢٩ .

عليه في قصره بباب الذهب ببغداد ، وأمر له المنصور بطعام يتغذّى به ، فلما وضعت المائدة بين يديه ، قال : شراب . فقيل له : « إن الشراب لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين » . فقال : « لا آكل طعاماً ليس معه شراب » . فأخبر المنصور بذلك . فقال : دعوه . فلما حضر العشاء . فعل به مثل ذلك . فطلب الشراب . فقيل له : « لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب » . فتعشى ، وشرب ماء دجلة . فلما كان من الغد . نظر إلى مائه ، فقال : « ما كنت أحسب شيئاً يجزى من الشراب . فهذا ماء دجلة يجزى من الشراب .

* * *

وجلس قوم في مجلس المنصور ينتظرون الإذن بالدخول عليه ، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ، حتى جاء ذكر (الحجاج ابن يوسف الثقفي) فمنهم من حمده ومنهم من ذمه . فكان ممن حمده (معن بن زائدة) وكان ممن ذمه (الحسن بن زيد) ثم أذن لهم فدخلوا على المنصور . فانبرى الحسن بن زيد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! ما كنت أحسبني أبقى حتى يذكر الحجاج في دارك وعلى بساطك ، فيثنى عليه » . فقال أبو جعفر : « وما استنكرت من ذلك ؟ ! رجل استكفاه قوم ، فكفاهم . والله لوددت أني وجدت مثل الحجاج حتى أستكفيه أمري ، وأنزله أحد الحرمين » . فقال له معن : « يا أمير المؤمنين ! إن لك مثل الحجاج عدة لو استكفيتهم كفوك » فقال أبو جعفر : « ومن هم ؟ كأنك تريد نفسك ؟ » فقال معن : « وإن أردتُها فلم أبعد من ذلك ؟ » فأجابه المنصور : « كلا ! لست كذاك ، إن الحجاج ائتمنه قوم فأدى إليهم الأمانة وإنا ائتمناك فخنتنا »[1] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٨/ ٨٧ و ٨٨ و ٨٩ و ٦٩ .

ذكر لأبي جعفر المنصور تدبير هشام بن عبد الملك بن مروان في حرب كانت له ، فبعث إلى رجل كان معه ، ينزل الرُّصافة (رصافة هشام) يسأله عن تلك الحرب . فقدم عليه الرجل ، فقال له المنصور : « أنت صاحب هشام ؟ » فقال الرجل : « نعم يا أمير المؤمنين » وسأله المنصور : « أخبرني ، كيف فعل في حرب دبرها في سنة كذا وكذا . . . » فقال الرجل : « إنه فعل فيها رحمه الله كذا وكذا . . . ثم أتبع بأنْ قال : فعل كذا رضي الله عنه » . فأحفظ ذلك المنصور - أغضبه - فقال للرجل : « قم عليك غضب الله ! تطأ بساطي وتترحم على عدوي ! » . فقام الرجل الشيخ وهو يقول : « إن لعدوك قلادة في عنقي ، ومنة في رقبتي لا ينزعها عني إلا غاسلي » . فأمر المنصور برده . وقال له : « اقعد ! هيه ! كيف قلت ؟ » فأجاب الشيخ : « قلت إنه كفاني الطلب ، وصان وجهي عن السؤال ، فلم أقف على باب عربي ولا أعجمي منذ رأيته ، أفلا يجب علي أن أذكره بخير وأتبعه بثنائي ؟ » فقال المنصور : « بلى ! لله أم نهضت عنك ، وليلة أدتك ، أشهد أنك نهيض حرة وغراس كريم » ، ثم استمع منه ، وأمر له ببر ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! ما آخذه لحاجة ، وما هو إلا أني أتشرف بحِبائك - عطائك - ، وأتبجح بصلتك » ، وأخذ الصلة وخرج ، فقال المنصور : « عند مثل هذا تحسن الصنيعة ، ويوضع المعروف ، ويجاد بالمصون . وأين في عسكرنا مثله ؟ »

***

كان المنصور يسأل مالك بن أدهم كثيراً عن حديث عجلان بن سهيل مع هشام بن عبد الملك ، فقال مالك : « كنا جلوساً مع عجلان يوماً ، إذ مر بنا هشام بن عبد الملك ، فقال رجل من القوم :

قد مر الأحول . فقال عجلان : من تعني ؟ قال : هشاماً . فقال عجلان : تسمي أمير المؤمنين بالنبز[1] والله لولا رحمك لضربت عنقك » فقال المنصور : « هذا والله الذي ينفع مع مثله المحيا والممات » .

❋ ❋ ❋

ظفر المنصور يوماً برجل من كبراء بني أمية ، فقال له : « إني أسألك عن أشياء ، فاصدقني ولك الأمان » قال الرجل : « نعم » . فسأله المنصور : « من أين أتي بنو أمية حتى ضاع ملكهم ، وانتشر أمرهم ؟ » فقال الرجل : « من تضييع الأخبار » وسأل المنصور : « فأي الأموال وجدوها أنفع ؟ » وأجاب الأموي : « الجوهر » وعاد المنصور للسؤال : « عند من وجدوا الوفاء ؟ » ورد الأموي : « عند مواليهم » . وأراد المنصور أن يستعين في جمع الأخبار بأهل بيته ، ثم قال : أضع من أقدارهم ـ أي أحط منها ـ فاستعان بمواليه[2] .

❋ ❋ ❋

جلس أبو جعفر المنصور يوماً إلى إسماعيل بن عبد الله ، وقال له : « صف لي الناس » فقال اسماعيل : « أهل الحجاز مبتدأ الإسلام وبقية العرب . وأهل العراق ركن الاسلام ومقاتلة عن الدين . وأهل الشام حصن الأمة وأسنة الأئمة . وأهل خراسان فرسان الهيجاء وأعنة الرجال . والترك منابت الصخور وأبناء المغازي . وأهل الهند حكماء استغنوا ببلادهم فاكتفوا بها عما يليهم . والروم أهل كتاب وتدين ، نحاهم الله من القرب إلى البعد . والأنباط ، كان

---

(١) النبز : بالتحريك تعني اللقب وقد يعير به ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ .
(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٧٩ و ٩٩ و ٨١ .

ملكهم قديماً فهم لكل قوم عبيد » وسأل المنصور : « أي الولاة أفضل ؟ » وأجاب اسماعيل : « الباذل للعطاء ، والمعرض عن السيئة » وسأل المنصور : « فأيهم أخرق ؟ » وأجاب إسماعيل : «أنهكهم للرعية، وأتعبهم لها بالخرق والعقوبة» وسأل المنصور: « فالطاعة على الخوف أبلغ في حاجة الملك أم الطاعة على المحبة ؟ » وأجاب الرجل : « يا أمير المؤمنين ! الطاعة عند الخوف تسر الغدر وتبالغ عند المعاينة . والطاعة على المحبة تضمر الاجتهاد وتبالغ عند الغفلة» وسأل المنصور: «فأي الناس أولاهم بالطاعة ؟ » وأجاب الرجل : « أولاهم بالمضرة والمنفعة » وعاد المنصور للسؤال : « ما علامة ذلك ؟ » فأجاب الرجل : « سرعة الإجابة ، وبذل النفس » وقال المنصور : « فمن ينبغي للملك أن يتخذه وزيراً ؟ » فأجاب الرجل : « أسلمهم قلباً ، وأبعدهم عن الهوى »[1] .

* * *

بينما أمير المؤمنين أبو جعفر سائراً في طريقه إلى مكة المكرمة ، إذا برجل على ناقة حمراء تذهب في الأرض وقد عرض له ، وعليه جبة خز ، وعمامة عدنية ، وفي يده سوط يكاد يمس الأرض ، سريّ الهيئة، فلما رآه المنصور أمر بدعوته إلى مجلسه ، فجيء بالرجل ، وسأله المنصور عن نسبه وبلاده وبادية قومه وعن ولاة الصدقة ، فأحسن الجواب ، فأعجبه ما رأى منه وما سمع ، فقال له : « أنشدني » . فأنشده الرجل شعراً لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم ، وحدثه حتى أتى على شعر لطريف

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٧٠ ـ ٧١ .

ابن تميم العنبري وهو قوله :

إنَّ قـنـاتي لـنبـع لا يـؤيـسُـهَـا
غـمـزُ الـثِـقَـاف ولا دُهْـنٌ ولا نـارُ
متى أجـر خـائفـاً تـأمن مـسـارحُـهُ
وإن أُخِـفْ آمنـاً تـقـلق بـه الـدارُ
إن الأمـورَ إذا أوردتُـهـا صَـدَرَت
إن الأمـور لـهـا ورد وإصـدارُ

فقال المنصور : « ويحك ! ومن كان طريف فيكم حيث قال هذا الشعر ؟ » فرد الرجل : « كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأدركهم ثأراً ، وأيمنهم نقيبة ، وأعساهم[1] قناة لمن رام هضمه ، وأقراهم لضيفه ، وأحوطهم من وراء جاره ، اجتمعت العرب بغكاظ فكلهم أقر له بهذه الخلال ، غير أن امرأ أراد أن يقصر به ، فقال له : « والله ما أنت ببعيد النجعة ، ولا قاصد الرمية » . فدعاه ذلك إلى أن جعل على نفسه ألا يأكل إلا لحم قنص يقتنصه ، ولا ينزع كل عام عن غزوة يبعد فيها أثره » . فقال له المنصور : « يا أخا بني تيم ! لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك ، ولكني أحق ببيتيه منه ، أنا الذي وُصِفَ لا هو »[2] .

***

توجه الشاعر (المؤمل بن أميل) إلى الري ، حيث كان يحكمها المهدي ولي عهد المنصور ، ومثل الشاعر أمام المهدي ومدحه بقصيدة ، فأمر له المهدي بعشرين ألف درهم . فكتب

---

(١) أعساه : أشده وأصلبه .

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٦٩ ـ ٧٠ .

صاحب البريد بذلك إلى المنصور ، فكتب المنصور إلى ابنه المهدي يعذله ويلومه ويقول له : « إنما كان ينبغي لك أن تعطي الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم » وكتب المنصور أيضاً إلى كاتب المهدي أن يوجه إليه بالشاعر . . . وحمل الشاعر إلى المنصور ، فلما أدخل عليه وسلم ، قال له المنصور : « أنت المؤمل بن أميل ؟ » فأجاب الشاعر : « نعم ! أصلح الله أمير المؤمنين » فقال له المنصور : « هيه ! أتيت غلاماً غراً فخدعته ! » فأجاب الشاعر : « نَعم أصلح الله أمير المؤمنين ، أتيت غلاماً غراً كريماً فخدعته فانخدع » . وأعجب ذلك المنصور فقال للشاعر : « أنشدني ما قلت فيه » فقال الشاعر :

هو المهدي إلا أن فيه
مَشَابِهَ صورة القمرَ المُنيرِ
تشابه ذا وذا فهما إذا ما
أنارا مشكلان على البصير
فهذا في الظلام سراج ليل
وهذا في النهار سراج نور
ولكن فَضل الرحمن هذا
على ذا بالمنابر والسرير
وبالملك العزيز فَذا أمير
وماذا بالأمير ولا الوزير
ونقص الشهر يخمد ذا ، وهذا
منير عند نقصان الشهور
فيابن خليفة الله المُصفى
به تعلو مفاخَرةُ الفخورِ

لئـن فُـتَّ الـمـلوك وقـد تـوافـوا
إلـيـك من الـسـهـولـة والـوعـور
لـقـد سبـق الـمـلوك أبـوك حـتـى
بَـقُـوا مـن بـين كـابٍ أو حـسـيـر
وجئـت وراءه تـجـري حـثـيـثـاً
ومـا بـك حين تجـري من فـتـور
فـقـال الـنـاس : مـا هـذان إلا
بـمنـزلـة الـخليق مـن الـجـديـر
لئـن سبـق الكـبيـر فـأهـلُ سبـقٍ
لـه فضـل الكبيـر عـلى الصغيـر
وإن بـلغ الـصـغيـر مـدى كـبيـر
لـقـد خلق الـصغيـر من الـكـبيـر

فقال المنصور : « والله لقد أحسنت . ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم . فأين المال ؟ » وأجاب الشاعر : « ها هو ذا ! » فقال المنصور لحاجبه : « انزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم ، وخذ منه الباقي » . وأخذ الشاعر الأربعة آلاف ومضى . فلما صار المهدي خليفة ، ولي (ابن ثوبان) المظالم . فكان يجلس للناس بالرصافة ، فإذا ملأ كساءه رقاعاً رفعها إلى المهدي . فجاء الشاعر المؤمل بن أميل ، ورفع رقعة ذكر فيها قصته . فلما دخل بها ابن ثوبان ، جعل المهدي ينظر في الرقاع ، حتى إذا نظر في رقعة (المؤمل) ضحك ، فسأله ابن ثوبان : « أصلح الله أمير المؤمنين ! ما رأيتك ضحكت من شيء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة » . فقال المهدي : « هذه رقعة أعرف سببها . ردوا إليه العشرين الألف درهم» فردت إليه وانصرف[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٧٣ ـ ٧٥ .

(٢) من خطب المنصور وأقواله

خطب المنصور بمدينة السلام سنة اثنتين وخمسين ومائة ، فكان مما قاله : « **يا عباد الله ! لا تظالموا ، فإنها مظلمة يوم القيامة . والله لولا يد خاطئة ، وظلم ظالم ، لمشيت بين أظهركم في أسواقكم . ولو علمت وكان من هو أحق بهذا الأمر مني - يعني الخلافة - لأتيته حتى أدفعه إليه** » . وكان المنصور يقول : « **عقوبة الحليم التعريض - أو التلميح - وعقوبة السفيه التصريح - أو التشهير -** » وقال المنصور يوماً : « مَنْ صنع مثل ما صُنع إليه فقد كافأ ، ومن أضعف فقد شكر ، ومن شكر كان كريماً ، ومن علم أنه إنَّما صنع إلى نفسه لم يستبطىء الناس في شكرهم ، ولم يستزدهم من مودتهم ، فلا تلتمس من غيرك شكر ما أتيته إلى نفسك ، ووقيت به عرضَك . واعلم أن طالب الحاجة إليك لم يكرم وجهه عن وجهك ، فأكرم وجهك عن ردّه » .

* * *

خطب المنصور بمنى يوم عرفة ، فقال : « أيها الناس ! إنَّما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيئه ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، قد جعلني

الله عليه قفلاً ، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم ، فتحني ، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني . فارغبوا إلى الله أيها الناس ، وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه ، إذ يقول تبارك وتعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلَامَ دِيناً ﴾[1] أن يوفقني للصواب ، ويسددني للرشاد ، ويلهمني الرأفة بكم ، والإحسان إليكم ، ويفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، إنه سميعٌ قريب » .

* * *

وخطب المنصور يوماً فقال : « الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله وحده لا شريكَ له » فاعترضه معترض عن يمينه فقال : « أيُّها الإنسان ، أذكرك من ذكرت به » فأجابه المنصور على الفور : « سمعاً سمعاً ، لمن حفظ عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً ، وأن تأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . وأنت أيها القائل ؛ فوالله ما أردت بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال فعوقب فصبر ، وأهون بها . ويلك لو هممت ! فاهتبلها إذ غفرت . وإياك وإياكم معشر الناس أختها ؛ فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ، فردوا الأمر إلى أهله ، توردوه موارده ، وتصدروه مصادره . . . » ثم عاد في خطبته ، فكأنه يقرؤها من كفه ، فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . وتابع خطبته .

* * *

---

(١) سورة المائدة ـ ٣ .

كان المنصور يخطب في مسجد المدينة ببغداد ، إذ اعترضه أبو الجوزاء ، وقطع عليه خطبته ، فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولونَ ما لاَ تَفْعَلُونَ ﴾[1] فحمل أبو الجوزاء ، فأدخل على المنصور ، فقال له : « مَنْ أنت ويلك ! إنّما أردت أن أقتلك ، فاخرج عني فلا أراك » وخرج الرجل سالماً ، وهو لا يكاد يصدق أن لم ينله عقاب .

* * *

ووقف المنصور خطيباً في مسجد المدينة ببغداد ، فخطب في الناس إلى أن قال : « اتّقوا الله حق تقاته » فقام إليه رجل وقال له : « وأنت يا عبد الله ! فاتق الله حق تقاته » فقطع أبو جعفر الخطبة وقال : « سمعاً سمعاً ، لمن ذكر بالله ، هات يا عبد الله ، فما تقىٰ الله ؟ » فانقطع الرجل فلم يقل شيئاً ، فقال أبو جعفر : « الله الله أيها الناس في أنفسكم ، لا تحملونا من أموركم ما لا طاقة لكم به . لا يقوم رجل هذا المقام إلّا أوجعت ظهره ، وأطلت حبسه » ثم قال : « خذه إليك يا ربيع ! » وعرف الناس أن الرجل قد نجا ، إذ كان من عادة المنصور إذا ما أراد برجل مكروهاً قال : « خذه إليك يا مسيب ! » ، ثم رجع في خطبته من الموضع الذي كان قطعه ، فاستحسن الناس ذلك منه . فلما فرغ من الصلاة دخل القصر ، وجعل عيسىٰ بن موسىٰ يمشي على هينته خلفه ، فأحسَّ به أبو جعفر ، فقال : أبا موسىٰ ؟ فأجاب : « نعم يا أمير المؤمنين » فقال له المنصور : « كأنك خفتني على هذا الرجل » فأجاب أبو موسىٰ : « والله لقد سبق إلى قلبي بعض ذلك ، إلّا أن أمير المؤمنين أكثر علماً ، وأعلى نظراً من أن يأتي في أمره إلّا الحق » فقال المنصور :

---

(١) سورة الصف ـ ٢ .

« لا تخفني عليه » . فلما جلس ، قال : « عليَّ بالرجل » فأتيَ به ، فقال له : « يا هذا ! إنك لما رأيتني على المنبر ، قلت : هذا الطاغية لا يسعني إلاَّ أن أكلمه ، ولو شغلت نفسك بغير هذا لكان أمثل لك ، فاشغلها بظماء الهواجر وقيام الليل ، وتغبير قدميك في سبيل الله » ثم قال المنصور لمولاه الربيع : « انطه ـ أو اعطه ـ أربعمائة درهم » وعاد للرجل فقال له : « اذهب ولا تعد » .

* * *

حج المنصور بعد بناء بغداد ، فقام خطيباً بمكة المكرمة ، فكان مما حفظ من كلامه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونْ ﴾[1] أمر مبرم ، وقول عدل ، وقضاء فصل ، والحمد لله الذي أفلج حجته ، وبعداً للقوم الظالمين ، الذين اتَّخذوا الكعبة عرضاً ، والفيء إرثاً ، وجعلوا القرآن عضين[2] ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معطلة ، وقصر مشيد ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة ، واضطهدوا العترة[3] ، وَعَنَدُوا واعتدوا ، واستكبروا ، وخابَ كل جبارٍ عنيد ، ثم أخذهم ، فهل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً »[4] .

* * *

لما تتابعت الأحداث على أبي جعفر المنصور ، تمثل :

تفرقت الظباء على خِداشٍ فما يدري خِداشٌ ما يصيد

---

(١) سورة الأنبياء ـ ١٠٥ .

(٢) عضين ؛ أي فرقاً .

(٣) العترة : ولد الرجل وذريته أو عشيرته .

(٤) تاريخ الطبري ٨/ ٨٩ ـ ٩١ .

ثم أمر بإحضار القواد والموالي والصحابة وأهل بيته ، وأمر حماداً التركي بإسراج الخيل ، وسليمان بن مجالد بالتقدم ، والمسيب بن زهير بأخذ الأبواب ، ثم خرج في يوم من أيامه حتى علا المنبر ، فجلس طويلاً لا ينطق حتى قال رجل : « ما لأمير المؤمنين لا يتكلم ، فإنه والله ممَّن يهون عليه صعاب القول ، فما باله ؟ » ونهض المنصور ، فبدأ الخطبة بقوله :

ما لي أكفكف عن سعد ويشتِّمني
ولو شتمتُ بني سعد لقد سكنوا
جهلاً عليَّ وجبناً عن عَدُوِّهم
لبئست الخلتان : الجهل والجُبُنُ

ثم جلس وقال :

فألقيت عن رأسي القناع ولم أكن
لأكشفه إلاّ لإحْدى العظائم

والله لقد عجزوا عن أمر قمنا به ، فما شكروا الكافي ، ولقد مهدوا فاستوعروا ، وغمطوا الحق وغمصوا ، فماذا حاولوا ! ؟ أشرب رنقاً على غَصص ٍ ، أم أقيم على ضيم ومضض ؟ ! والله لا أكرم أحداً بإهانة نفسي ، والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لا يجدونه عندي . والسعيد من وعظ بغيره » .

* * *

كان عبد الله بن حسن قد أعلنَ تمرّده على الخليفة المنصور ، فلما انتصر عليه أبو جعفر ، وأخذه هو وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلَّى على النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثم قال :

« يا أهل خراسان ! أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلَّا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام فيها علي بن أبي طالب ، فتلطَّخ وحكَّمَ عليه الحكمين ، فافترقت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فوالله ما كان فيها برجُل ، فقد عرضت عليه الأموال فقبلها ؛ فدسَّ إليه معاوية ، فخدعه ، فانسلخ منها وممَّا كان فيه ، وأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة . . . فخذلوه وأسلموه حتى قتل . ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخدعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه . وقد كان أتىٰ محمد بن علي ، فناشده في ـ عدم ـ الخروج ، وسأله ألَّا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنَّا نجد في بعض علمنا ، أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب . وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل ، وأتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة ، ثم وثب علينا بنو أمية ، فأماتوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا . والله ما كانت لهم عندنا تِرَة يطلبونها ، وما كان لهم ذلك كله إلَّا فيهم وبسبب خروجهم عليهم ، فنفونا من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ، ومرة بالشراة ، وعزنا بكم أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبيّنا صلَّى الله عليه وسلَّم ، فقر الحق مقره ، وأظهر مناره ، وأعزَّ أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد

لله رب العالمين . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها ، من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا ، وبغياً لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلَّى الله عليه وسلَّم . . . وإني والله يا أهل خراسان ، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم ، فدسست لهم رجالاً ، وقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان ، فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالاً يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ، فدسّوا إليهم تلك الأموال ، فوالله مابقي منهم شيخ ولا شاب ، ولا صغير ولا كبير ، إلاَّ بايعهم بيعة ،استحللت بها دماءهم وأموالهم . وحلَّت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج علي ، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين » - ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر الآية : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا في شَكٍ مُرِيبٍ ﴾(١) .

* * *

وخطب المنصور بالمدائن ، عند قتل أبي مسلم الخراساني ، فقال :

« أيُّها الناس ! لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فإنه لم يُسر أحد قط منكرةً إلاَّ ظهرت في آثار يده ، أو فلتات لسانه ، وأبداها الله لإمامه ، بإعزاز دينه ، وإعلاء حقه . إنَّا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم . إنَّا من نازعنا عُروة هذا القميص أجزَرْناه خَبيَّ هذا

---

(١) سورة سبأ - ٥٤ وانظر تاريخ الطبري ٨/ ٩٣ - ٩٥ . والكامل في التاريخ - ابن الأثير ٤/ ٣٥٠ - ٣٥٦ - والبداية والنهاية .

الغمد ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباحَ دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » .

* * *

وكان المنصور يقول : « سادة الدنيا الأسخياء ، وسادة الآخرة الأنبياء » .

* * *

(٣) المنصور وأهل بيته

حَـدَّثَ محمد بن سليمـان قال : « بلغني أن المنصـور أخذ الدواء في يوم شات شديد البرد ، فأتيته أسأله عن موافقة الدواء له ، فأدخلت مدخـلاً من القصر لم أدخله قط ، ثم صـرت إلى حجيرة صغيرة وفيها بيت واحد ورواق بين يديـه في عَرْض البيت وعَـرْض الصحن ، على أسـطوانة سـاج ، وقد أسـدل على وجـه الـرواق ـ بواري[1] ـ كما يصنع بالمساجد . فدخلت فإذا في البيت مِسْح ليس فيه شيء غيره إلا فراشه ومرافقه ودثاره ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! هذا بيت أربأ بك عنه ، فقال : يا عم ! هذا بيت مبيتي . فقلت : ليس هنا غير هذا الذي أرى . فقال المنصور : ما هو إلا ما ترى » .

وقال خادم ابو جعفر المنصور ـ واسمه سلام الأبرش ـ : «كنت وأنا وصيف وغلام آخر نخدم المنصور داخلاً في منزله ، وكانت له حجرة فيها بيت وفسـطاط وفراش ولحـاف ، يخلو فيه . وكـان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس ، وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان . فإذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمـرت

---

(١) البواري : جمع بارية وهو الحصير المنسوج .

عيناه ، فيخرج فيكون منه ما يكون . فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك ، فنستقبله في ممشاة ، فربما عاتبناه . وقال لي يوماً : يا بني ! إذا رأيتني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي ، فلا يَدْنوَن مني أحد منكم مخافة أن أعره ـ أوذيه ـ بشيء »

لم ير في دار المنصور لهوٌ قط ، ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث ، إلا يوماً واحداً . وذكر حماد التركي ذلك ، فقال : كنت واقفاً على رأس المنصور ، فسمع جلبة في الدار ، فقال : ما هذا يا حماد ؟ انظر . فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجواري ، وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن . فجئت فأخبرته . فقال : وأي شيء الطنبور ؟ فقلت : خشبة من حالها وأمرها . . . ووصفتها له . فقال لي : أصبت صفته ، فما يدريك أنت ما الطنبور ؟ ! قلت : رأيته بخراسان . قال : نعم هناك ! ثم قام المنصور يمشي رويداً حتى أشرف عليهم فرآهم . فلما بصروا به تفرقوا . فقال : خذوه ، فأخذ . فقال : اضرب به رأسه . فلم أزل أضرب به رأسه حتى كسرته . ثم قال : أخرجه من قصري ، واذهب به إلى حمران بالكرخ . وقل له يبيعه »

كان للمنصور خادم أصفر إلى الأدْمة(١) ماهر لا بأس به ، فقال له المنصور يوماً : ما جنسك ؟ قال الخادم : عربي يا أمير المؤمنين ، فسأله المنصور : ومن أي العرب أنت ؟ قال الخادم : من خَوْلان ، سبيت من اليمن ، فأخذني عدو لنا ، فجبني فاسترقت ، فصرت إلى بعض بني أمية ، ثم صرت إليك . فقال له المنصور : « **أما إنك**

---

(١) الأدمة : السمرة .

نعم الغلام ، ولكن لا يدخل قصري عربي يخدم حُرَمي ، اخرج عافاك الله ، فاذهب حيث شئت »[1]

* * *

كان عمارة بن حمزة عند المنصور ، فانصرف من عنده في وقت انتصاف النهار . وبعد أن بايع الناس للمهدي ، جاءه المهدي في وقت انصرافه ، فقال له : « قد بلغني أن أبي قد عزم أن يبايع لجعفر أخي ، وأعطِي الله عهداً لئن فعل لأقتلنه » فمضى عمارة من فوره إلى أمير المؤمنين وهو يقول في نفسه : هذا أمر لا يؤخر . فقال له الحاجب : الساعة خرجْتَ ! فقال عمارة : أمر حدث . فأذن له وأدخله على المنصور ، فبادره المنصور بقوله : هيه يا عمارة ! ما جاء بك ؟ فرد عمارة : أمرٌ حدث يا أمير المؤمنين أريد أن أذكره . فقال المنصور : فأنا أخبرك به قبل أن تخبرني ، جاءك المهدي ، فقال كيت وكيت . قلت : والله يا أمير المؤمنين لكأنك حاضر ثالثنا ، فقال المنصور : « **نحن أشفق عليه من أن نعرضه لك** » .

* * *

دخلت خالصة ـ زوجة المهدي ـ على الخليفة المنصور ، فإذا هو يتشكى من وجع ضرسه ، فلما سمع صوتها قال لها : ادخلي ، فلما دخلت إذا هو واضع يده على صُدغيه . فسكت ساعة ، ثم قال : « يا خالصة ! كم عندك من المال ؟ » فردت خالصة بقولها : « ألف درهم ! » فقال لها المنصور : « ضعي يدك على رأسي واحلفي ! » فردت خالصة : « عندي عشرة آلاف دينار » فقال لها

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٨٠ و٦٣ ـ ٦٤ و ٩٩ .

المنصور : « احمليها إلي » فرجعت ، فدخلت على المهدي والخيزران ، فأخبرتهما ، فركلها المهدي برجله ، وقال لها : « ما ذهب بك إليه ! ما به من وجع ، ولكني سألته أمس مالاً فتمارض ، إحملي إليه ما قلت » ففعلت ، فلما أتاه المهدي ، قال له : « **يا أبا عبد الله ! تشكو الحاجة وهذا عند خالصة** » .

***

قال المنصور يوماً وهو يخاطب مولاه ـ واضح ـ : « انظر ما عندك من الثياب الخلْقان ـ العتيقة والبالية ـ فاجمعها ، فإذا علمت بمجيء أبي عبد الله فجئني بها قبل أن يدخل ، وليكن مع رقاع » . وفعل واضح ما أمره به المنصور ، ودخل عليه المهدي وهو يقدر الرقاع ، فضحك ، وقال : « يا أمير المؤمنين ! من هنا يقول الناس : نظروا في الدينار والدرهم وما دون ذلك ـ ولم يقل : دانق ـ » فقال المنصور : « **إنه لا جديد لمن لا يصلح خلقه ـ عتيقه ـ . وهذا الشتاء قد حضر ، ونحتاج إلى كسوة للعيال والولد** » فرد عليه المهدي بقوله : « عليَّ كسوة أمير المؤمنين وعياله وولده » فقال له المنصور : « دونك فافعل » .

***

وسأل المنصور يوماً ابنه المهدي ـ أبا عبد الله ـ : « كم راية عندك ؟ » فأجاب المهدي : «لا أدري ! » فقال له المنصور: «هذا والله التضييع ! أنت لأمر الخلافة أشد تضييعاً ، ولكن قد جمعت لك ما لا يضرك معه ما ضيعت ، فاتق الله فيما خولك »[1] .

***

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٦٩ و ٧٢ و ٧٣ .

فرق أبو جعفر المنصور على جماعة من أهل بيته في يوم واحد عشـرة آلاف درهم ، وأمر للرجـل من عمومتـه : سليمـان وعيسى وصالح وإسماعيل ، بني علي بن عبد الله بن عباس لكل رجل منهم بألف ألف معونة له من بيت المال ، وكان أول خليفة أعطى ألف ألف من بيت المـال ، فكانت تجـرى في الدواوين ، ولا نعـرف خليفة قبله ولا بعده وصل بها أحداً من الناس .

***

أمر أبو جعفر المنصور مولاه (واضح) أن يشتـري له ثـوبين لينين ، فاشتراهمـا له بعشـرين ومائـة درهم ، وأتاه بهمـا ، فسألـه المنصـور : بكم ؟ . فـرد واضـح : بثمـانين درهمـاً . فقـال لـه المنصور : صالحان ، ولكن استحِطَّه - أي خفض الثمن - فإن المتاع إذا أدخل علينا ثم رُدَّ على صاحبه كسره ذلك . فأخذ واضح الثوبين ، فلمـا كان الغـد ، حملهُما إلى المنصـور ، فسألـه المنصور ، مـا صنعت ؟ فرد واضح : رددتهما عليه فحطني عشرين درهماً . فقال المنصور : أحسنت ، اقطع أحدهما قميصـاً ، واجعل الآخـر رداء لي . ففعل واضح ، ولبس المنصور القميص خمسة عشر يومـاً لم يلبس غيره .

***

كان المنصور يأمر أهـل بيته بحسن الهيئـة وإظهار النعمـة ، وبلزوم الوشي والطيب ، فإن رأى أحداً منهم قد أخل بذلك أو أقل منه ، قال : « يا فلان ، ما أرى وبيص - لمعان - الغالية في لحيتك ، وإني لأراها تلمع في لحية فلان » . فيشحذهم بذلك على الإكثار من

الطيب ، ليتزين بهيئتهم وطيب أرواحهم عند الرعية ، ويزينهم بذلك عندهم . . .

❊ ❊ ❊

لما حج المنصور في السنة التي توفي فيها ، شيعه ابنه المهدي مودعاً ، فوقف المنصور وأوصى المهدي بقوله : « يا بني ! إني قد جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وجمعت لك من الموالي ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وبنيت لـك مدينـة لم يكن في الاسلام مثلها ـ بغداد ـ ولست أخاف عليك إلا أحد رجلين : عيسى ابن موسى ، وعيسى بن زيد . فأما عيسى بن موسى فقد أعطاني من العهود والمواثيق ما قبلته . ووالله لو لم يكن إلا أن يقول قولاً لما خفته عليك ، فأخرجه من قلبك . وأما عيسى بن زيد ، فأنفق هذه الأموال واقتل هؤلاء الموالي ، واهدم هذه المدينة حتى تـظفر بـه ، ثم لا ألومك » .

❊ ❊ ❊

(٤) سياسة الولاة

كان ولاة البريد في الآفاق كلها يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأُدْم وبسعر كل مأكول ، وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي ، وبما يرد بيت المال من المال ، وكل حدث ، وكانوا إذا صلوا المغرب يكتبون إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة ، فإذا وردت كتبهم إلى المنصور ، نظر فيها ، فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك ، وإن تغير شيء منها عن حاله ، كتب إلى الوالي والعامل هناك ، وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره ، فإذا ورد الجواب بالعلة ، تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله ، وإن شك في شيء مما قضى به القاضي ، كتب إليه بذلك ، وسأل من بحضرته عن عمله ، فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه .

رُفع رجل إلى المنصور يشكو عامله أنه أخذ حداً من ضيعته، فأضافه إلى ماله ، فوقع إلى عامله في رقعة المتظلم : « **إن آثرت العدل صحبتك السلامة . فأنصف هذا المتظلم من هذه الظلامة** »

وتظلم رجل من أهل السواد من بعض العمال في رقعة رفعها إلى المنصور . فوقع المنصور عليها : « **إن كنت صادقاً فجيء به ملبباً**

فقد أذنا لك في ذلك »[1] .

وكتب صاحب أرمينية إلى المنصور : « إن الجند قد شغبوا علي ، وكسروا أقفال بيت المال ، وأخذوا ما فيه » فكتب إليه المنصور : « **اعتزل عملنا مذموماً ، فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينتهبوا** » .

* * *

ولى المنصور رجلاً من العرب على بلاد حضرموت ، فكتب عامل البريد إلى المنصور بأن هذا الوالي يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها ، فعزله المنصور وكتب إليه : « ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ! ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش ! إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك ملوماً مدحوراً » .

وولى المنصور رجلاً اسمه ! (سهيل بن سالم البصري) عملاً من أعماله ، ثم علم المنصور أن عامله هذا احتجن مالاً من أموال المسلمين[2] فعزله وأمر بحبسه واستئدائه . فقال سهيل : « عبدك يا أمير المؤمنين ! » فأجابه المنصور : « بئس العبد أنت » فقال سهيل : « لكنك يا أمير المؤمنين نعم المولى ! » فأجاب المنصور : « أما لك ، فلا ! »[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٩٦ - ٩٧ .
(٢) احتجن المال : ضمه إلى نفسه واحتواه .
(٣) تاريخ الطبري ٨/ ٦٨ .

كان المنصور لا يولي أحداً ثم يعزله ، إلا ألقاه في دار على شاطىء دجلة ، ويستخرج من المعزول مالاً . فما أخذ من شيء أمر به فعزل وكتب عليه اسم من أخذ منه ، وعزل في بيت مال خاص (سماه بيت مال المظالم) فكثر في ذلك البيت من المال والمتاع . ثم قال لابنه المهدي : « إني قد هيأت لك شيئاً ترضي به الخلق ولا تغرم من مالك شيئاً . فإذا أنا مت فادع هؤلاء الذين أخذت منهم هذه الأموال التي سميتها المظالم ، فاردد عليهم كل ما أخذ منهم ، فإنك تستحمد إليهم وإلى العامة » ففعل ذلك المهدي لما وَليَ[١] .

علم المنصور أن واليه على الكوفة ـ عيسى ابن موسى ـ قتل رجلاً من ولد ـ نصر بن سيار[٢] ـ كان مستخفياً بالكوفة ، فدل عليه ، فضرب عنقه . فأنكر ذلك وأعظمه ، وهم في عيسى بأمر كان فيه هلاكه ، ثم منعه من ذلك جهل عيسى بما فعل ، فكتب إليه : « أما بعد ! فإنه لولا نظر أمير المؤمنين واستبقاؤه لم يؤخرك عقوبة قتل ابن نصر بن سيار ، واستبدادك به بما يقطع أطماع العمال في مثله . فأمسك عمن ولاك أمير المؤمنين أمره ، من عربي وأعجمي ، وأحمر وأسود ، ولا تستبدن على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبة في أحد قِبَلَهُ تباعة[٣] فإنه لا يرى أن يأخذ أحداً بظنة قد وضعها الله عنه بالتوبة ، ولا بحدث كان فيه في حرب أعقبه الله منها سلماً ستر به عن ذي غلة ، وحجز به عن محنة ما في الصدور . ولا ييأس أمير المؤمنين

---

(١) الطبري ٨/ ٨١ .

(٢) نصر بن سيار (٤٦ ـ ١٣١ هـ = ٦٦٦ ـ ٧٤٨ م) من أمضىٰ سيوف بني أمية ، كان والياً على خراسان ، واشتهرَ بالحكمة والشجاعة ، حارب الدعوة العباسية وأصحابها بعناد وضراوة . وتوفي في الري .

(٣) تباعة : مثل التبعة .

لأحد ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر ، كما أنه لا يأمن إدبار مقبل ، إن شاء الله . والسلام »[1] .

❊ ❊ ❊

رفع غلام لأبي مقاتل الخراساني شكوى إلى أبي جعفر يقول فيها أن له عند مولاه عشرة آلاف درهم ، فأخذها منه أبو جعفر ، وقال لأبي مقاتل : « هذا مالي ! » فقال له أبو مقاتل : « ومن أين يكون مالك ؟ فوالله ما وليت لك عملاً قط ، ولا بيني وبينك رحم ولا قرابة » فرد أبو جعفر بقوله : « بلى ! كنت تزوجت مولاة لعيينة بن موسى ابن كعب فورثتك مالاً ، وكان ذلك قد عصى وأخذ مالي وهو والٍ على السند ، فهذا المال من ذلك المال » .

❊ ❊ ❊

ولى أبو جعفر رجلاً ولاية منطقة ـ باروسما ـ فلما صرفه عن الولاية أراد أن يتعلل عليه ، لئلا يعطيه شيئاً . فقال له : « أشركتك في أمانتي ، ووليتك فيئاً من فيء المسلمين ، فخنته ! » فرد الرجل : « أعيذك بالله يا أمير المؤمنين ! ما صحبني من ذلك شيء إلا درهم . منه مثقال صررته في كمي ، إذا خرجت من عندك اكتريت به بغلاً إلى عيالي ، فأدخل بيتي ليس معي شيء من مال الله ولا مالك » . قال له أبو جعفر : « ما أظنك إلا صادقاً ، هلم درهمنا » . فأخذه منه ، فوضعه تحت لبده[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) الطبري ٨/ ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) الطبري ٨/ ٧٦ .

دعا المنصور بعامل من عماله قد كسر خراجه ، فقال له : «أدِّ ما عليك » فقال العامل : « والله ما أملك شيئاً » . ونادى المنادي - المؤذن - : « أشهد أن لا إله إلا الله » فقال العامل : « يا أمير المؤمنين ! هب ما علي لله ، ولشهادة أن لا إله إلا الله » فخلى سبيله .

***

(٥) أبو جعفر المنصور والناس

كان المنصور يقول : « **ليس بإنسان من أُسْديَ إليه معروف فنسيه دون الموت** » .

* * *

قال الوضين بن عطاء : « استزارني أبو جعفر ـ وكانت بيني وبينه خلالة أو صداقة قبل الخلافة ـ فصرت إلى مدينة السلام ، فخلونا يوماً ، فقال لي : يا أبا عبد الله ـ ما مالُكَ ؟ ـ قلت : الخبر الذي يعرفه أمير المؤمنين . فقال : وما عيالك ؟ وأجبت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنَّ . فقال لي : أربع في بيتك . . . ورددها حتى ظننت أنه سيمولني وسيعينني ، ثم رفع رأسه إليّ وقال : أنت أيسر العرب ، أربعة مغازل يدرن في بيتك ! ! » .

* * *

كان المنصور قبل خلافته ينزل على رجل يقال له ـ أزهر السمان ـ ولم يكن الرجل بالمحدِّث . فلما ولي المنصور الخلافة ، قصد أزهر السمان مدينة السلام ، ودخل على المنصور ، فقال له المنصور : ما حاجتك ؟ قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، عليّ دين

أربعة آلاف درهم ، وداري مستهدمة ، وابني محمد يـريد البنـاء ـ الزواج ـ بأهله . فأمر له المنصور باثني عشر ألف درهم ، ثم قال : يا أزهر ! لا تأتنا طالب حاجة . قال الرجل : أفعل . فلما كان بعـد قليل ، عاد ، فقال له المنصور : يا أزهر ! ما جاء بك ؟ قال : جئت مسلماً يا أمير المؤمنين . فردَّ عليه المنصور : إنـه ليقع في نفسي أشياء ، منها أنك أتيتنا لما أتيتنا له في المرة الأولى ـ فأمر له باثني عشر ألف أخرى ـ ثم قال له : يا أزهر ! لا تأتنا طـالب حاجـة ولا مُسَلماً . قال أزهر : نعم يا أمير المؤمنين . ثم لم يلبث أن عاد . فقال المنصور : يا أزهر ما جاء بك ؟ قال : دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عنك . قال المنصور : لا ترده ، فإنه غير مستجاب ، لأني قد دعوت الله أن يريحني من خلقتك ، فلم يفعل ، وصرفه ولم يعطه شيئاً .

* * *

قال زيد مولىٰ عيسى بن نهيك : « دعاني المنصور بعد موت مولاي ، فقال : يا زيد . قلت : لبيك أمير المؤمنين . قـال : كم خلف عيسىٰ من المال ؟ قلت : ألف دينار أو نحوها ، قال : فأين هي ؟ قلت : أنفقتها الحرة في مـأتمه . فـاستعظم المنصـور ذلك وقال : أنفقت الحرة في مأتمه ألف دينار ؟ ما أعجب هذا ؟ ! وكم خلف من البنات ؟ قلت ستاً . فأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال : اغد إلى باب المهدي . فغدوت ، فقيل لي : أمعك بغال ؟ فقلت : لم أؤمر بذلك ولا بغيره ، ولا أدري لم دعيت ! . فأعطيت ثمانين ومائة ألف دينار ، وأمرت أن أدفع إلى كل واحدة من بنات عيسىٰ ثلاثين ألف دينار . ثم دعاني المنصور ، فقال : أقبضت ما أمرنا به لبنات عيسىٰ ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : اغد علي بأكفائهنَّ حتى

أزوجهنَّ منهم . فغدوت عليه بثلاثة من ولـد العكي وثلاثـة من آل نهيـك من بني عمهنَّ ، فزوج كـل واحدة منهنَّ على ثـلاثين ألف درهم . وأمر أن تحمل إليهنَّ صدقاتهنَّ من ماله . وأمرني أن أشتري بما أمر لهنَّ ضياعـاً يكون معاشهنَّ منها ، ففعلت ذلك .

* * *

(٦) قصة المنصور وابن هبيرة

أعلن (ابن هبيرة) خلعه للخليفة المنصور ، وسار المنصور بجيشه إلى (واسط) فحصرها ، وشدَّد الحصار عليها . فكتب ابن هبيرة للمنصور : « إني خارج يوم كذا ، وكذا ، وداعيك إلى المبارزة ، فقد بلغني تجبينك إياي » فردَّ عليه المنصور : « يا بن هبيرة ! إنك امرؤ متعد لطورك ، جار في عنان غيك - ضلالتك - يعدك الله ما هو مصدقه ، ويمنيك الشيطان ما هو مكذبه ، ويقرب ما الله مباعده ، فرويداً يتم الكتاب أجله . وقد ضربت مثلي ومثلك : بلغني أن أسداً لقي خنزيراً ، فقال له الخنزير : قاتلني . فقال الأسد : إنَّما أنت خنزير ولست لي بكفء ولا نظير ، ومتى فعلت الذي دعوتني إليه فقتلتك ، قيل لي : قتلتَ خنزيراً . فلم أعتقد بذلك فخراً ولا ذكراً . وإن نالني منك شيء كان سُبَّة علي . فقال الخنزير : إن أنت لم تفعل رجعت إلى السباع فأعلمتها أنك نكلت عني وجبنت عن قتالي . فردَّ عليه الأسد بقوله : **احتمال عار كذبك أيسر عليَّ من لطخ شاربي بدمك** »[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٧٧ - ٧٨ . وانظر حرب المنصور وابن هبيرة في أحداث سنة ١٣٢ هـ من تاريخ الطبري .

وانتهت الحرب ، وخرج المنصور منتصراً ، وجلس ابن هبيرة يوماً في مجلسه وقال : « ما رأيت رجلاً قط في حرب ، ولا سمعت به في سلم ، أمكر ولا أبدع ، ولا أشد تيقظاً من المنصور ، لقد حصرني في مدينتي تسعة أشهر ، ومعي فرسان العرب ، فجهدنا الجهد كله أن ننال من عسكره شيئاً نكسره به ، فما تهيأ . ولقد حصرني وما في رأسي بيضاء ، فخرجت إليه وما في رأسي سوداء ، وإنه لكما قال الأعشىٰ :

يقوم على الرَّغم من قومه فيعفو إذا شاء أو ينتقم
أخو الحرب لا ضَرَعٌ واهنٌ ولم ينتعل بنعال خَذِمْ

* * *

(٧) وداع المنصور ووصيته

أراد المنصور التوجه للحج ، سنة ثمانٍ وخمسين ومائة للهجرة ، فنزل ، قصر عَبْدويه ، وأقام به أياماً ، والمهدي معه يوصيه ، فلما أراد أن يرتحل ، دعا المهدي فقال له : « إني لم أدع شيئاً إلَّا قد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها ، انظر هذا السفط ـ الصندوق ـ فاحتفظ به ، فإن فيه علم آبائك . . . فإن أحزنك أمر فانظر في الدفتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ما تريد ، وإلَّا فالثاني والثالث ، حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجد فيها ما تريد ، **وما أظنك تفعل** . وانظر هذه المدينة ـ بغداد ـ فإياك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها ، فإنك لا تزال عزيزاً ما دامَ بيت مالك عامراً ، **وما أظنك تفعل** . وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الإحسان إليهم ، وتعظم أمرهم ، وتوطىء الناس أعقابهم ، وتوليهم المنابر ، فإن عزك عزهم وذكرهم لك ، **وما أظنك تفعل** . وانظر مواليك ، فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم ، فإنهم مادتك

لشدة إن نزلت بك ، **وما أظنك تفعل** . وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلُفَ من مات منهم في أهله وولده ، **وما أظنك تفعل** . وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تتم بناءها ، **وما أظنك تفعل** . وإياك أن تستعين برجل من بني سليم ، **وأظنك ستفعل** . وإياك أن تدخل النساء في مشورة أمرك ، **وأظنك ستفعل** » .

عاد المنصور ، فاستدعى إليه المهدي وحدَّثه ، وأوصاه : « يا أبا عبد الله ! إني سائر وإني غير راجع ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فاسأل الله بركة ما أقدم عليه ، هذا كتاب وصيتي مختوماً ، فإذا بلغك أني قدمتُ وصار الأمر إليك فانظر فيه ، وعلي دين فأحب أن تقضيه وتضمنه » فقال المهدي : « هو عليٍّ يا أمير المؤمنين » . فقال المنصور : « فإنه ثلثمائة ألف درهم ونيف ، ولست أستحلها من بيت مال المسلمين ، فأضمنها عني ، وما يفضي إليك من الأمر أعظم منها » فردَّ المهدي : « أفعل ، هو عليَّ » واستأنف المنصور حديثه : « هذا القصر ليس هو لك ، هو لي ، وقصري بنيته بمالي ، فأحب أن تُصيِّرَ نصيبك منه لإخوتك الأصاغر » فردَّ المهدي : « نعم » . وقال المنصور : « ورقيقي الخاصة هم لك ، فاجعلهم لهم ، فإنك تصير إلى ما يغنيك عنهم ، وبهم إلى ذلك أعظم الحاجة » فقال المهدي : « أفعل » فتابع المنصور : « أما الضياع ، فلست أكلفك فيها هذا ، ولو فعلت كان أحبُّ إلي » فردَّ المهدي : « أفعل » فقال المنصور : « سلم إليهم ما سألتك من هذا ، وأنت معهم في الضياع ، وأما المتاع والثياب فسلّمه لهم ، أحسن الله عليك الخلافة ، ولك

الصنع ! اتق الله فيما خولك وفيما خلفتك عليه » .

دعا المنصور بعد ذلك ريطة بنت أبي العباس ـ امرأة المهدي ـ فأوصاها بما أراد ، وعهد إليها ، ودفع إليها مفاتيح الخزائن ، وتقدَّم إليها ، وأحلفها ، ووكد الأيمان ألا تفتح بعض تلك الخزائن ، ولا تطلع عليها أحداً إلاَّ المهدي ، ولا هي ، إلاَّ أن يصح عندها موته ، فإذا صحَّ ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما ثالث ، حتى يفتحا الخزانة . فلما قدم المهدي إلى مدينة السلام ، دفعت إليه المفاتيح ، وأخبرته عن المنصور أنه تقدم إليها فيه ألا يفتحه ولا يطلع عليه أحداً حتى يصح عندها موته . فلما انتهى إلى المهدي موت المنصور، وولي الخلافة ، فتح الباب ومعه ريطة ، فإذا أزجٌ (ضرب من الأبنية) كبير ، فيه جماعة من قتلاء الطالبيين، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم ، وإذا فيهم أطفال ورجال ، شباب ومشايخ ، عدة كثيرة ، فلما رأى ذلك المهدي ارتاعَ لما رأى ، وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها ، وعمل عليهم دكاناً .

* * *

وحانت لحظة الوداع ، وجاء المهدي مودعاً ، فأوصاه والده المنصور : « يا أبا عبد الله ! إني ولدت في ذي الحجة ، ووليت في ذي الحجة ، وقد هجس في نفسي أني أموت في ذي الحجة من هذه السنة ، وإنَّما حداني على الحج ذلك ، فاتَّق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي ، يجعل لك فيما كَرَبَك وحزنك مخرجاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب . احفظ يا بني محمداً صلَّى الله عليه وسلَّم في أمته يحفظ الله عليك أمورك . وإياك والدم الحرام ، فإنه حوبٌ عند الله عظيم ، وعارٌ في الدنيا لازم

مقيم . والزم الحلال ؛ فإن ثوابك في الآجل وصلاحك في العاجل . وأقم الحدود ولا تعتدّ فيها فتبور ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه وأزجر من معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه . واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه ، أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على مَنْ سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال : ﴿ إِنَّما جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً ﴾[1] الآية . فالسلطان حبل الله المتين وعروته الوثقىٰ ودين الله القيّم ، فاحفظه وحُطْه وحصّنه ، وذُبَّ عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، واقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمَثُلات بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن واحكم بالعدل ولا تُشْطط ، فإن ذلك أقطع للشَغَب ، وأحسم للعدوّ ، وأنجع في الدواء ، وعف عن الفيء ، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلِّفه لك ، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة ، وإيّاك والأثَرَة والتبذير لأموال الرعية . واشحن الثغور ، واضبط الأطراف ، وأمّن السبل ، وخص الواسطة ، ووسّع المعاش ، وسكن العامة ، وأدخل المرافق عليهم ، واصرف المكاره عنهم ، وأعد الأموال واخزنها . وإياك والتبذير ، فإن النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وهي من شيم الزمان . وأعد الرجال والكراع والجند ما استطعت ، وإيّاك وتأخير عمل اليوم إلى غد ، فتتدارك عليك الأمور وتضيع . جدَّ في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأولاً ، واجتهد وشمر فيها ، وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل . وباشر الأمور بنفسك ، ولا

---

(١) سورة المائدة ـ ٣٣ ، وانظر تاريخ الطبري ٨/ ١٠٢ ـ ١٠٦ .

تضجر ولا تكسل ولا تفشل . واستعمل حسن الظن بربك ، وأسيء الظن بعمالك وكتابك ، وخذ نفسك بالتيقّظ ، وتفقّد من يبيت على بابك ، وسهّل إذنك للناس ، وانظر في أمر النزاع إليك ، ووكل بهم عيناً غير نائمة ، ونفساً غير لاهية ، ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة ، ولا دخل عينه غمض إلاّ وقلبه مستيقظ . هذه وصيتي إليك ، والله خليفتي عليك » .

***

ومضى المنصور إلى الكوفة ، فنزل الرصافة ، ثم خرج منها مهلاً بالعمرة والحج ، قد ساق هَديه من البُدْن ، وأشعر وقلد ، ثم مضى حتى نزل آخر منزل نزله من طريق مكة . ونظر في صدر البيت الذي نزل فيه ، فإذا فيه مكتوب :

بسم الله الرحمن الرحيم

أبا جعفر حانت وفاتك وانقَضَت
سِنُوك ، وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر ، هل كاهنٌ أو منجمٌ
لك اليوم من حر المنية مانع ؟ !

فدعا المنصور بالمتولي لإصلاح المنازل ، فقال له : « ألم آمرك ألا يدخل المنزل أحد من الدعار » . فقال الرجل : « يا أمير المؤمنين ! والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها » فقال له المنصور : «إقرأ ما في صدر البيت مكتوباً » فرد الرجل : « ما أرى شيئاً يا أمير المؤمنين » ، فدعا المنصور برئيس الحجبة ، فقالَ له : « إقرأ ما على صدر البيت مكتوباً » فرد رئيس الحجبة : « ما أرى على صدر البيت شيئاً » ، فأملى المنصور البيتين فكتبا عنه ، والتفت إلى حاجبه وقال

له : اقرأ لي آية من كتاب الله جل وعز ، تشوقني إلى الله عز وجل ؛ فتلا : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . وَسَيَعْلَم ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[1] فأمر المنصور بفكيه فوجئا ، وقال له : « ما وجدت شيئاً تقرؤه غير هذه الآية ! فقال الحاجب : « يا أمير المؤمنين ! محي القرآن من قلبي غير هذه الآية » . وخيل لأبي جعفر أنه سمع هاتفاً يهتف به من قصره بالمدينة ، وهو يقول :

أما وربِّ السكونِ والحِرَكِ
إن المنايا كثيرة الشِّرَكِ
عليك يا نفس إن أسأتِ وإن
أحسَنْتِ بالقَصْدِ ، كل ذاكِ لَكِ
ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ولا
دارت نجومُ السماءِ في الفَلَكِ
إلا بنقلِ السلطانِ عن مَلَكٍ
إذا انقضى مُلكهُ إلى مَلَكِ
حتى يصير انه إلى مَلكٍ
ما عز سلطانه بمشترِكِ
ذاك بديع السماء والأرض والمُرْ
سِي الجبالِ المسخّر الفَلَكِ

فقال أبو جعفر : هذا والله أوان أجلي .

وجاء عبد العزيز بن مسلم ، فدخل على المنصور ليسلم عليه ، فإذا هو باهت لا يحير جواباً ، فوثب لما رأى منه ، وهو يريد

(١) سورة الشعراء ـ ٢٢٧ .

الانصراف عنه ، فقال له المنصور بعد ساعة : « إني رأيت فيما يرى النائم ، كأن رجلاً ينشدني هذه الأبيات :

أأُخيَّ أَخْفِض من مناكا فكأنَّ يَوْمَك قد أتاكا
ولقد أراك الدهر من تصريفه ما قد أراكا
فإذا أردت الناقِصَ الـ عبدَ الذليل فأنتَ ذاكا
مُلِكْتَ ما مُلِّكْتَهُ والأمر فيه إلى سواكا

فهذا الذي ترى من قلقي وغمي لما سمعت ورأيت . وأمر المنصور بالرحيل عن ذلك المنزل تطيراً ـ تشاؤماً ـ مما كان . وركب فرساً ، فلما كان في الوادي الذي يقال له سَقَرْ (وهو آخر منزل بطريق مكة) كبا به الفرس ، فدق ظهره ومات .

* * *

واجتمع عدد كبير من الهاشميين وجماعة كثيرة من أهل العراق وأهل مكة والمدينة ممن حضر الحج . ثم خرج الربيع ، وفي يده قرطاس ، فألقى أسفله على الأرض ، وتناول طرفه ، وقرأ :«بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله المنصور ، أمير المؤمنين ، إلى من خلف بعده من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين » . . . ثم ألقى القرطاس من يده ، وبكى وبكى الناس ، فأخذ القرطاس ، وقال : قد أمكنكم البكاء ، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين ، لا بد من أن نقرأه عليكم ، فأنصتوا رحمكم الله ، فسكت الناس ، ثم رجع إلى القراءة ، أما بعد : « فإني كتبت كتابي هذا وأنا حي في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدي ، ولا يلبسكم شيعاً ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض . يا بني هاشم ويا أهل خراسان » . ثم

أخذ في وصيتهم بالمهدي ، وإذكـارهم البيعـة له ، وحضهم على القيام بدولته ، والوفاء بعده إلى آخر الكتاب . . .

وأخذ الربيع البيعة للمهدي في مكة والمدينة ، وطار النبأ إلى أرجـاء العالم الاسـلامي ، فبايـع المسلمون للمهـدي . لقد مات المنصور ، وأصبح المهدي خليفة المسلمين .

وحفر للمنصور مائة قبر ـ ببئر ميمـون ـ ودفن في كلها ، لئـلا يعرف موضع قبره الذي هو ظاهر للناس ، ودفن في غيرها للخوف عليـه . . وهكذا قبـور خلفاء ولَـد العباس ، لا يعـرف لأحد منهم قبر . . .

* * *

(٨) الشاعر سلم الخاسر يرثي المنصور

عجباً للذي نعى الناعيان
كيف فاهت بموته الشفتان
ملك إن غدا على الدهر يوماً
أصبح الدهر ساقطاً للجران
ليت كفاً حثَت عليه تراباً
لم تَعُد في يمينها ببنان
حين دانت له البلادُ على العَسـ
ـف وأغضى من خوفه الثقلان
أين ربُّ الزوراء قد قلدته الـ
ـملك ، عشرون حجة واثنتان
إنما المرء كالزناد إذا ما
أخذته قوادح النيران
ليس يثني هواه زجر ولا يقـ
ـدَحُ في حبله ذوو الأذهان
قلدته أعنة الملك حتى
قاد أعداءه بغير عنان

يُكْسَرُ الطَّرْفُ دونه وترى الأيـ
ـدي من خوفه على الأذقان

ضم أطراف ملكه ثم أضحى
خلفَ أقصاهُمُ ودون الداني

هاشمي التشمير لا يَحْمِلُ الثقـ
ـلَ على غارب الشَّرُودِ الهِدَانِ

ذو أناةٍ ينسى لها الخائف الخو
فَ وعزمٍ يُلوِى بكلِّ جَنَانِ

ذَهَبَتْ دونه النفوسُ حِذاراً
غير أنَّ الأرواحَ في الابدانِ

* * *

المراجع الرئيسة للبحث

١ ـ تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٠ .

٢ ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ دار الكتاب العربي ـ لبنان ـ ١٩٦٧ .

٣ ـ تاريخ ابن خلدون ـ دار الكتاب اللبناني ـ ١٩٦٧ .

٤ ـ نفح الطيب ـ الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ .

٥ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ مطبعة روضة الشام ـ سنة ١٣٣٢هـ .

٦ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل بروكلمان ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٤ .

بسّام العسلي

المنصور القائد

دار النفائس

هذه السلسلة

القمم الشامخة التي تبحثها هذه السلسلة معروفة مشهورة لدى عامة المسلمين وخاصتهم . والكتب التي تتناول سيرهم وتراجمهم لا تعدُّ ولا تحصى ، فبماذا تمتاز هذه السلسلة ؟

إنها تركز على جانب مهم من حياة الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء موضوع الدراسة ، هو جانب إدارة الحروب الكثيرة التي خاضتها جيوشهم .

فكل منهم بحكم موقعه كان القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وكان عليه أن يضع « الاستراتيجية العليا » للدولة ويعين القادة ، ويوجههم ، ويحاسبهم .

وهذا ما يجعلنا نعتز بتقديم مجموعة الكتب هذه التي تغطي جانباً مهماً كثيراً ما أهمله المؤرخون .

بقي أن نشير إلى التردد الكبير الذي واجهناه عند اختيار اسم السلسلة . فليس الخليفة ملكاً ولا سلطاناً ، وليس كل ملك أو سلطان خليفة .

وربما كان اختيار الخليفة عمر لقب « أمير المؤمنين » مساعداً لنا في تسمية هذه السلسلة « مشاهير الخلفاء والأمراء » . والله الموفق .

الناشر

